

رواية

محسن الموسوي

دار الشروق

صفحة فارغة


دَرب الزَعفَران

الطبعـة الأولى

١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

«زمن الرواية هو الخمسينات، ومكانها وشخوصها
ضرب من الافتراض ومقاربة الواقع مقاربة فنية،
فهي لاتعني التطابق كما لاتبتغيه»

صفحة فارغة

لم أكن أول المتجمهرين، وذهني يشكو اكتظاظا عرسا، لعل مرده هذا التناقض بين نسوة الصباح واحباطات مابعد الظهيرة، كسيرا أسفا أنا الآن بعدما ملأتني البهجة صباحا، مأخوذا اكثر من ذي قبل بعينيها (سوداوين يسعيدان داخلي فهما كأنهما يخشيان أن اذهب عنهما بعيدا) بجسدها، بذهنها، بكمالها . لن أقدر على البت فى تفسير هذا الهوى. . . فسحر غامضة أيضا، أكاد أدعي يسرها مرة، وغرابتها مرات، ترى هل مؤهلة لما انا مقدم عليه بعد رحلة العزوبة هذه ؟ كنت متوترا كلما ساءلتُ نفسي عما أنا بشأنه،

لأجدني عرضة لمزيد من الاسئلة، توقد فيّ القلق، تربكني، تتوزعني في هيآت ورؤى ومواقف. . . ها أني اشعر بالتوتر ثانية، ترىٰ هل بمقدور غيري معرفة أحاسيسي الجديدة؟ ألفت حياتي الماضية، واصبحت سياقاً اعتدته، استمد منه راحتي وسلواي، لولا الرتابة التي تزعجني قليلاً، لتأتيني سمر فتبددها، قرصاً من الشمس، دافئاً ونيّراً وحبيباً، لأشعر بعدها فجأة باندحار ماضٍ عشته وتصورته نجاحاً. . . سفينة كنت أخطأتْ في عرض البحر، تاهت، لتجد مرفأها بعد لأيٍ، والعيون مرافىء والقلوب مراسي، وأنا أحيا همي الان، يقطعني، حيرةً وقلقاً، فالتغير ليس هيناً، والتجربة والخطأ ليس شأني . . .

ها إني أشهد تمزق رتابة اليوم، لم استكمل نشوة الصباح بعد، لأسمع ما اسمع، ولم استجمع شجاعتي كاملة لأقدم على ما أنا مزمعهُ مع سمر، قالت، قد يكون قرارك هذه المرة مزهراً كالربيع؟ يالشاعرية البنات، هل تريني قادراً على بهجة الربيع هذه؟ الربيع في الجسد، والشمس في القلب والمياه في الروح، والحب يتوهج في عروق احاطتها الرتابة بالغبار، وانت تزيحه عنك، تنفضه بعيداً، والعروق تستجيب منتشية، حارة ممتلئة. نظرت الى عينيها وابتسمت رغماً عني، مكابداً مع ذاتي هكذا كنت في تلك اللحظة كمن يخوض معاركه الخاصة، واعصابي تستجمع طاقات جديدة، حادة ولذيذة، هوجاء، تمتلىء تحت جلدي، تستيقظ فجأة

منتشية بهيجة، ترفل فيها الفرحة بالشوق، خضراء مزهرة تتفتح عندما تشرق عندها العيون الشموس فيضاً غامراً من الحياة والمودة. . عندها أغالب ديدني الماضي، أناكده، أنازعه، اسعى لردعه وصده عني، فلربما جاءني الربيع غيثاً ينهمر من عينيها، من جسدها، وصوتها الذي يصطدح شوقاً عذباً، لكنها غير ذلك أيضاً. . .

وتستعيدني اللحظة الى مرارة الدنيا، وعيناي تجولان في هذه الباحة.

لست أول المتجمهرين، ولست آخرهم، ومازال اهل الحي من الرجال يتقاطرون. . ولم أزل تعباً، كأني مصاب بدوار، قد يكون سببه الصدمة، أو حرارة الجو أو المراوح السقفية التي تدور فوق رأسي بصوت مسموع يختنق بحشرجات حديدها المهمل، أو لعلها عادتي في النوم التي اضطربت هذا اليوم. .

كانت ضحكة كواثر، الموظفة في بريد شارع الزعفران، توقظني من غفوة مابعد الظهيرة، فرحة، مستبشرة، اتخيلها تمشي كعادتها متغنجة، بجسدها الممتلئ ووجهها الاسمر المدور بتقاطيعه المتناسقة وعينيها الدعجاوين. .

ولم أكد افرك عيني حتى كنت أسير لحظة اخرى، لحظة امتلكها صوت الحاج حمد. . اذ حمل الفضاء رهبة الموت التي فاض بها صوته الهادئ المتهدج، منداحة في جلال الذكر الحكيم، «كل نفسٍ ذائقة

الموت»، بينما منحتها شيخوخته رنة حزن زادت من تحريك ذلك الخشوع الذي ينتاب المرء ويطغى عليه عند ترتيل كلام الله . «كل نفس ذائقة الموت» كررها الحاج حمد مؤذن جامع الزعفران القريب، ليمضي مكبراً قبل موعد صلاة المغرب، معلناً وفاة جلال الدين الامين:

اذن مات جلال الدين الامين، الى رحمة الله، وإنّا لله وإنّا اليه راجعون. «كل نفس ذائقة الموت»، ولكن اكثر الناس لايفقهون، نعم، كنت اهمس لنفسي، وأنا أتوجه نحو خزانة ملابسي لأرتدي مايتفق مع المناسبة، اذ يلزمني المشاركة في مراسم التشييع والدفن كما هي العادة بيننا نحن أهالي شارع الزعفران.

أنتَ نفسكَ قد تستغرب مني هذه العناية في تسمية الشارع، وكأني التحدث عن محلة او منطقة او مدينة، لكنه ذو مقام في نفسي أكثر من اية منطقة او محلة او مدينة، الزعفران هو دمنا، وهو الفتنا وحياتنا، بل هو تكويننا الشخصي، فنحن قد لانحيا خارجه، ولا ادري لماذا اتذكر السمك والماء كلما أردت تذكيرك بقوة الرابطة بين الشارع واهله. قد لايبدو فريداً، لكنه شارع طويل اقمنا فيه منذ أن فتحنا عيوننا على هذه الدنيا، فحياتنا زعفرانية، اذا جاز التعبير، تلتحم به، ولاتكاد تعني شيئاً من دونه. تزدحم على جانبيه بيوته

الجبارة الواسعة ذات الحدائق الغناء والاسوار العالية والبوابات الفخمة. فيه تآلفنا وتعارفنا، تخاصمنا و تصالحنا، اقمنا فيه او أقام هو فينا. ونحن الان في العقد السادس من القرن العشرين، نبدو أكثر تجانساً والتصاقاً وتعارفاً على الرغم ممّا يعتري واقعنا من خلاف قد يقع هنا أو هناك او مشكلة ما، كلما اخترق صفنا الدخلاء.

انا ضد الدخلاء، بل على الرغم ممّا تعرفه عني من دماثة وهدوء واتزان، فاني أتشنج كلما شعرت بالدخلاء ينقبون في أوساطنا، لا.. لاأعني بالدخيل الشخص الغريب، بل، وهنا استعين بما تعلمته في المدارس من طرائق تعريف ذلك الذي يسعى لالغاء غربته بالتدخل الصفيق في شؤون غيره، ولاسيما شؤوننا الزعفرانية، فحتىٰ المؤذن الحاج حمد لم يكن دخيلاً، رغم انه ليس من سكنة شارعنا، بل جاءه نزولاً عند رغبة أحد أقربائه، عبد اللطيف الماجد، الذي سكن هذا الشارع أباً عن جد، كما يقال في تثبيت هوية إبناء حيِّنا الجميل. نحن نألف ذواتنا بيسر.. ولم تكن تجربتنا مع الدخلاء حسنة، ولهذا ترانا نحيد عنهم، نتجنبهم قدر المستطاع، لنبقي على شخصية حيِّنا العتيد، حي الزعفران، الذي لايعدو كونه شارعنا الجبار الممتد الى مسافةبعيدة تتقاطع عندها عشرات الشوارع الاخرى.

لا ، لا أقيم فيه، أو يقيم هذا الدرب في ذاتي لاني ألفته البارحة أو اليوم ، فثمة شيء آخر يشدّني اليه ، يطوقني برابطة أخرى أعمق مما أفترض في نفسي القدرة على شرحه . لو قلت ، انه يعيدني الى ساكنه الاخر في نهاية القرن الرابع الهجري ، نهاية القرن العاشر الميلادي ، أبي القاسم الصندلاني لما فهمت مني شيئاً . وماذا لو قلت انه يعيدني الى تلك الصبية بنت طاهر ابن العلاء صاحب الفتيان الذي سكن قرن الصراط ، ودرب الزعفران تحديداً ؟ اني ضده، اخلاقياً في الاقل، كما اني لا أطيق لحيته المشرحة التي افترقت فرقتين على صدره «كأنها قضيب من لجين» كما يقول الراوي الشعبي ، لكن الصبية التي سحرتني تذكرني بصبيته التي امتلكت قلب ابي الحسن العماني ، وها هي تعيدني ثانية الى شارع الزعفران ، بعينين ، يحق فيهما قول الشاعر :

وعينان قال الله كونا فكانتا

فعولان بالالباب ما يفعل السحر

العينان يعيداني ثانية الى تلك الصبية والى ذلك الدرب ، ويتأكدان في قصة أخرى ، سالفة هي أيضاً ، تنداح ثانية في الذهن، تذهلني وتشدني في آن واحد ، هي قصة جميلة بنت ابي الليث العميد حاكم

البصرة التي رسمها الكتبي ، ابن عمها المحب الحائر ، ابو القاسم الصندلاني الذي سكن درب الزعفران ، في تلك الحارة أيضاً ، مكتفياً برسمها تلك التي هيمنت على قلبه ، وانتزعت لبه ، علّ أحد الشباب ينسحر بها ويهيم ، ويبلغها وينال منها ، ويشفي له غليله من ذلك الكبرياء الرافض له ، ولكل الاخرين . هكذا قال . لكني اشك في ذلك ، فالشوق أوقد عند الصندلاني حساً آخر ، فانتشرت رسومه في كتبه لتبلغ مصر ، وتهد قلب ابراهيم بن الخصيب ، الذي تيم بالصورة قبل الأصل . فالدرب ، درب الزعفران الذي احتضن صبية الطاهر ، شهد تعذيب بنت ابي الليث التي رفضت ابن عمها الكتبي الرسام ، كما شهد تحريرها ، وأنا لا احتاج لهذه الشواهد ، فعيناها في قلبي ، وهي تلازمني كظلي ، لكنها الدرب حياة وتاريخ ، أعيشه وأحياه ، وأمتد فيه ، مرة شخصاً، وأخرى سلالة ، وثالثة اكثر من شخص وهوية وهواية ، فأنا الرسام والهاوي والكتبي والمتيم والأمير والتاجر والمفتون ، كلهم سكنوا فيه ، وسكن فيهم . . لكنها العبرة مختلفة . . هكذا قلت لسمر عندما رأتني ساهماً .

انه يمتلك الان في ذواتنا في الاقل مواصفاته وسماته المعينة التي تسرنا وتزعجنا، حتى تخيل بعضنا، اننا نتشرب بالزعفران فعلاً،

على الرغم من ان الرائحة العبقة السائدة هنا هي رائحة اليوكالبتوس ممتزجة بالدفلى، حيث تمتد اشجارها باسقات على جانبي ارصفة تتناصفها ساقية فريدة. . كنا نخشىٰ ان تلغي مصلحة اسالة الماء مثل هذه السواقي. انما العادة والشخصية هما السائدتان في شارع الزعفران. التقاليد تلد الناس، هكذا قال شيوخنا.

كل شئ فريد فيه، حتى السواقي قلما تبدو صافية المياه، فهي عكرة في الربيع كما هو امرها في الصيف، وفي الخريف كما هو شأنها في الشتاء. قد تطفو فوق مياهها اوراق الاشجار المتساقطة في اثناء الخريف، لكنها غالبا ما تنساب عكرة، كأنما تصر هي الاخرى على منح كيانها شخصيتها الخاصة، على الرغم من ارتباطها بالنهر نفسه الذي يتلألأ ماؤه صافياً في الصيف والخريف وبعض الشتاء. . وتلتف هذه السواقي والترع حول بعض المنازل ثم تعود منها الى خندقيها الرئيسين المتوازيين على امتداد رصيفي الشارع. كنت احيطها بحب خاص، وانظر اليها صباحاً ومساءً بنشوة معينة، كمن يستوعب حياة مياهها في داخله، فمياهها حية دائماً وان بدت ثقيلة شكلاً وبطيئة الحركة. لكنها تبعث نشوة في داخلي احسها بعضاً من ذلك القدر الغامر الذي يشدني الى الانهار والذي يتزايد باستمرار وكأنه يكيد خطر المدنية الجديد الذي يلغي كثيراً من عوالمنا القديمة.

واعتادت الطيور على هـذه السواقي ايضـاً، فالحمـام بالـوانه وانواعه يزدحم حولها، على الرغم من ان قطعاناً من الغربان وطيور الغاق تقوضُ حياته الاليفة الهادئة بين حـين وآخر. طيـور الغاق غريبة على الشارع، لكنها تكررت منذ سنوات، تحط عند انفراج الساقية امام متنزه الشارع، مستحوذة على المساحة المائيـة هناك، ومقيمة لنفسها وجوداً مؤقتاً يحقق لها متعتها عـلى حساب الحمـام الذي يفرُّ عادة طليقاً بعيداً عن البشر. .

قالوا مرة ان امرأة عجيبة جاءت باحثة عن هذه الطيور، وقال آخرون انها كانت تبحث عن الغربان، وقالوا انها مخيفة ترتدي ثوباً اسود ولها شعر مشرع للريح، وغالباً مايتفق هؤلاء عـلى ان شيئاً غريباً كان يمنعهم من التحديق في وجهها. لـم أعـر المـوضوع اهتماماً. . فأنا زاهد في التفاصيل.

لكنني اخشىٰ ان تجرفني العواطف، وأصبح ظلّاً لـلاخرين. ولهذا كنت ارتاب حتى في هذا الالتصاق النفسي الذي يشدّني الى الزعفران. كدت اثور ضده مرة، واهرب منه، وقد فعلتها قبـل اعوام وبقيت أحيا بعيداً عنه، لاجد نفسي منساقاً اليه كل مساء، أطويه مشياً على قدمي حتى أكلّ من التعب. وقررت العودة اليه مذعناً، الى حيث ينتصب منزلي في ركنه الشرقي، رحباً وضخـماً وميسوراً، من طابقين، يشرفان على حديقة واسعة تتخللها السواقي

الصغيـرة المتفرعـة من ترعـة رئيسة تمثـل في نفسي خلاصـة ترع الشارع، حيث تصب فيها المياه بقوة دفع زائدة بسبب انحدار ارض حديقة المنزل وانخفاضها مقارنة بغيرها في شارع الـزعفران. كم كنت اتلذذ برؤية الماء متدفقاً نحو السواقي الصغيرة التي تنتصب عند اطرافها مختلف الشجيرات والنخيل، واليوكالبتوس. . ما أبهاه واعذبه عنـد الفجر والمسـاء، رائحته تعبق في المكـان، لولا تلك الديدان التي تلاحقه كلما تعاظم طولاً واخضراراً. . لاتسألني عن سر عشقنا له؟ انه بعض من شخصية المكان.

ولكن ما الذي يستدرجني الى هذا الاسهاب، واية عادة سقيمه تـدفعني الى مثل هـذه الانثيالات السـاذجة عن الشـارع والمنزل والعادات والتقاليد، وكأني وغيري نخلو من الهموم ؟ ثم عليّ ان ارتـدي ملابسي بسـرعة لالحق بـالاخرين، لم ازل في السـادسة والخمسين. . . عجوز الان، هذا ماقد يقال، او لربما لم يعد قلبي شاباً، فلقد حملته معي جريحاً مكابداً، وكـان مدمىً ولم يـزل. . يجعلني اليوم الهث من التعب لمجرد الشعور بأن عليّ الاستعجال في ارتـداء ملابسي وبلوغ جـامع الـزعفران. . لا ادري ان كـانت عذاباتي حقيقية، لكنه الشعور وحده الذي يعذبني، الشعور بأني معذب!

ايه، رحمك الله ياجلال الدين الأمين، لم تكن شيخاً، فأنت لم

تبلغ الستين، لكن ضغط السنوات الاخيرة هو الذي اجهدك وأشقاك. . نعم ضغط السنوات الاخيرة.. عليّ بالباب الآن، فالتبكير بالمشاركة حسنة. .

غيري يسعون من اجل هذه الحسنة، لكن الرجل صديقي ايضاً، لمحت في طريقي اناساً عديدين يطوون المسافة ركضاً في اواخر نهار لافح من أيام حزيران، بينما كان أفراد جيلي يقطعونها متعثرين مهما بالغوا في سرعة المشي. وقفت بعض النسوة عند مداخل البيوت، يلتف بعضهن بالعباءات السود بينما ترتدي الاخريات ملابس ملونة تجلب الانتباه في مناسبة كهذه بما تنطوي عليه من حزن واسى. وهرعت اخريات الى منزل الفقيد الذي يتوسط الشارع، على بعد امتار من جامع الزعفران. اجتزت دائرة البريد التي تصطف صناديقها بلا انتظام على رصيف الشارع، ولمحت عابداً وكواثر وعائدة من بين موظفي الدائرة يحدثون بعضهم حيث تعمل الدائرة بوجبة مسائية ايضاً. . لغط. . لغط. . لغط. . كان عابد يدوس برجله على الارض بين الرصيف والساقية. . نمل. . وديدان. . كان يتمتم بصوت مسموع عندما مررت بجانبه.

لابد من ان يكون (زيدان). . او عيدان كما شاعت تسمية مدير بريد الزعفران. . قد سبقني الى هناك.

هذا الرجل يسبقني في كل شيْ، رغم تفرغي الكلي، عازباً

ومتقاعداً.

لست أول المتجمهرين، ولست آخرهم، ومازال هناك من يتوافد طاوياً المسافة على عجل يفصح عنه العرق الغزير المتصبب فوق الجباه.

ولم تزل جثة الفقيد في صحن الجامع، يحيط بها عدد من الاقارب والاصدقاء والمعارف، بينهم ابنه الطبيب صابر، الذي تجاوز المرحوم طولاً، بينما اكتسب سحنته الهادئة الوقورة وبشرته البيضاء الناعمة وعينيه الزرقاوين، مستغنياً عن الشارب الكث الذي ميّز الامين الوالد. وبجواره وقف شخص آخر لم اره من قبل، يضع قبعة خفيفة على رأسه، بينما بدا لطفي الحامد حزيناً كسيراً، بعينيه الصغيرتين المغرورقتين بالدموع، وخديه المتهدلين وشفتيه المتعبتين من أمر ما، لعله التدخين او الكلام، فهما لاتفتران عن ابتسامة لدرجة انهما يخدعان المرء بأن الحامد على وشك ان يحدثك أنت دون غيرك، ليواجهك في مرات عديدة صامتاً مستغرباً منك استعدادك للحوار. لكنه يتغلب على مثل هذه المفاجآت مادام قد ألف حالتين تقودانه الى الكلام عادة، هما الحزن أو الفرحة، وكلاهما يتناسب مع جسده الممتلئ وكفيه السمينتين اللتين كثيراً مايمسّد بهما خديه او كرشة الملفوف من الامام بصديري اعتادَ عليه شتاءً وصيفاً، ولم تدفعه ايام حزيران اللاهبة الى تغيير هذه العادة. بدلته اليوم زرقاء

فاقعة. ومنديله الازرق الواسع لا يفارق يده وهو لا ينفك يمسح به على وجهه، فالمراوح السقفية التي تغطي صحن الجامع الداخلي لم تستطع ان تطفىء الحرارة في جسده، كما يبدو.

مهلاً.. اين ذهبت بي نزعتي التعيسة هذه للثرثرة عن فلان وعلان ونسوة ومراوح واشجار وديدان؟ من هذا الذي يقف عند قدمي الفقيد المسجى في التابوت؟ حتى هنا... ولكن العياذ بالله، قررت منذ أيام أن اترك الشتيمة مرة والى الأبد، بعد ان لاحظت انها اصبحت بعضاً من شخصي، ساعيا لان اتحلى بشمائل الانسان التقي العادل. لكن التدريب يعني الابتداء، والرجل يذكرني بهمومي ومشكلاتي القديمة وحتى المحتملة: تجيد التظاهر والمكر يازيدان! يسمونه (عيدان) كما قلت، لكني أنبذ مثل هذا التنابز بالالقاب، مهما بدت سليمة، انسجاماً مع قراري بتبديل سلوكي الخارجي. انه ينظر اليّ أيضاً، حزيناً، ملتاعاً، هل تريدني ان أصدقك ونحن في لحظة الموت هذه؟ يارجل انت عجلّت بزهقان روحه! لو يدري انك تقف عند قدميه الان لفرّ من التابوت، نعم.. أكاد اجزم انه يفعل ذلك. كانت ايامه الاخيرة فاجعة، مرت في ذهني شريطاً، ونظري يتسلط بحكم العادة على كرش زيدان الصغير، لالسبب الاّ لأنه مكور يغريني بالسخرية والاستهزاء. فهو خلاصة زيدان، بديلاً لرأسه، هكذا تخيلته دائماً،

يمشي امامه تتبعه ساقاه في ايقاع بطيء، ويتهدل رأسه الى الخلف كأن احداً يتقصد سحبه الى وراء، بينما تجحظ عيناه كمن يعاند ذلك الابتزاز المستمر لرأسه. الابتزاز هي الكلمة التي ترد ذهني كلما فكرت برأس زيدان. لا اعرف ما يدور في رأسه الان، لكني اعرف ما يدور في رأسي انا ازاء هذا الرجل الذي جاءنا (دخيلاً) قبل عشرين عاماً، موظفاً حكومياً اعتيادياً أول الأمر، قبل أن يطغىٰ ويمكر. . مازلت اتساءل عما اذا كان «دخيلاً» أم نتاجاً هجيناً أم خلاصة لأمراض الزعفران. . . ! لكني لاأحبه. هذا ما اعرفه عن دراية ويقين.

يقف زيدان الان عند قدمي الفقيد، وأنا أعجز عن مقاومة صورة راودتني منذ برهة، كأن الامين يستيقظ مذعوراً بين لحظة وأخرى مفجوعاً بشعوره انه مازال تحت طائلة زيدان. الجميع هنا يعرفون ما يجري، وقد يتخيلون الصورة ذاتها، لكن «الزعفران» يملي أيضاً نمطاً من الممالاة وحتى ادعاء البلاهة كجزء من «الانسجام» والوقار والرضا الذاتي الذي يحفظ ماء الوجه. . فماء الوجه مصطلح يتكرر يومياً على الشفاه بثقة اعتبارية كاملة، ويغيب في الجلسات الخاصة. انه الوجه الاخر للخوف من الفضيحة، اية فضيحة. . . لكني قررت التخلي عن ميلي الانتقادي فالزعفران هو الاسم الأخر للرضا والقناعة والاطمئنان والصمت ازاء بعض

الأمور، وزيدان بعض من هذا البعض.

زيدان نفسه يستبشر بهذا القناع، فمن تأثيراته ولدت حالة لم نألفها كثيراً خلال السنوات الاخيرة، قد تسميها أنت أو غيرك من المتعلمين «القناع» أو «الازدواج». وانا اتفق معك في اننا لانختلف عن غيرنا من البشر مهما بالغنا في التماسك الاجتماعي الذي يقترن ايضاً بشارعنا نفسه.

لو قام الامين الآن. ماذا تراه يقول؟ لا استطيع كبح هذا التصور، انه يلح في ذهني، وانا معتاد على انثيالات مشابهة كلما شاغلتني مفارقات الحياة والموت. والآن اية مفارقة هذه: الأمين يرقدمستسلماً، وزيدان ينتصب عند قدميه ملتاعاً كما يريد منا أن نفهم!! بيننا وبين صلاة المغرب ساعة وربع الساعة، وما زال أهل الحي من الرجال يتوافدون فرادىٰ وجماعات الى صحن جامع الزعفران، بينما يتحرك الحاج حمد بهمة عالية هنا وهناك حسب مقتضيات المناسبة. ذهني ينشد الان الى التابوت، وتحديداً الى حيث يقف زيدان نفسه بحذائيه الكبيرين وسرواله المتهدل صعوداً الى كرشه المدور، وجيوب جاكيتته المفتوحة اعتادت على مشاغلات اصابعه. وبدا منتفخاً ومفتوحاً جيبه العلوي الذي تصب فيه سلسلة ذهبية تربط ساعته، يكاد يبلغ سعة جيبيه الاخرين. الذاكرة شيرك.عجيب، والا ما معنى ان اتخيل الان وفي هذه اللحظة

«ثقاب»؟ تلك العانس التي رافقتـه طيلة هذه السنـوات في دائرة البـريد، بشعـرها الكستنـائي الكث وجسدهـا الممتلىء ووجههـا الحنطي المدور وفمها الشهواني؟ ربما ذكرتني بها ربطة عنقـه ذات اللون الخردلي المنفر التي شدها بفجاجة! رأيتها مرة تشد له ربطة عنقه. ضحكت عندما رأتني بينما فزع زيدان، أو هكذا اعتقدت، «لابد من ان أعيد ترتيبه لكم ياشارع الزعفران»، غمزتني ثقاب.

قلت لها مازحاً أيضاً:

«هذا حق الاندماج ياثقاب فزيدان يريد الاندماج بهذا الجو».

تنحنح زيدان، ولم يبد عليه الارتياح.

كنت أنذاك حديث العهد بمعرفته، أتردد عـلى الدائـرة في طريقي عند الذهاب والأياب، متابعاً مراسلاتي الكثيرة، فحياتي مشحونة بهوايات خاصة وغريبة، لكنها تريحني وتناسبني مادمت قد اكتفيت مادياً، وبقيت عازباً ومتقاعداً لاسباب صحية منـذ زمن أيضاً. المراسلة هواية مـريحة عنـدما تمتلك صـداقات رفيعـة بين الكتاب والفنانين مثلاً، ويستكمل مرسمي ما يتبقى لدي من فراغ، لكني في كل ذلك مجرد هاوٍ لاغـير، تقودني الافكـار الى العمل. توجهت الى المرسم قبل أيام مثلاً عندما وجدت نفسي مأخوذاً بفكرة فضاء واسع تتناقض فيه الالوان وتتخاصم كأنها تصرخ وتصيح، بينما تقبع في زاوية من ذلك الفضاء اصابع متهدلة بقيت عالقة في

ذهني بلجاجة عجيبة منذ أن التصقت أصابع زيدان بالمكر الرذيل في حادث ما عرفت عنه بطريق الصدفة أيضاً.

الموقف يفترض مني شيئاً آخر، لكني هاو كما قلت، تقودني الصور والافكار، وها انذا أجد نفسي الان، وفي هذه اللحظة مأسوراً بهذه الاصابع وهي تعبث بأزرار جاكيتته المتهدلة، بينما راحت يده الاخرى تطوف في جيب سرواله الايمن، وكأن اصابعه لاتعرف غير التنقيب، والا ماذا تريد هذه الاصابع التي تتحرك، لم أره يوماً قد وضعها على قلبه متأملاً او متوجساً أو قلقاً أو مؤمناً او تقياً! حتى لوحاتي لم تسلم من هذه الاصابع، رأيت على واحدة منها «خربشة»، ومسحت على اللوحة مستغرباً.

ورأتني كواثر وأدركت انزعاجي مما جرى لهذه اللوحة.

قالت دون تستر.

ـ اظن ان «زيدان» كان يطوف عليها باصابعه!

يطوف! هذا رجل لايطوف، انما يهرش.. نعم يهرش ويلدغ.. فأصابعه هي ذهنه الذي لايسلم منه شيء...

حمل المظروف ختم اصبعين ملوثين بالحبر. وقد يكون الامر مصادفة، كما تخيلت: رسالة لجلال الدين الامين من عشيقة له في لبنان موضوعة في مظروف يحمل اسمي!!

خالياً من أية عقدة أو أي تهيب ذهبت الى جلال الدين

الامين. كان منقبضاً، حانقاً، يكاد جسـده الفارع لا يستقـر في مكان، بينما اهتز شاربه الكث، أو هكذا خيلّ الي : وبادرته ـ

ياأبا صابر، هل لنا ان نتحدث على انفراد.

كنت كمن يعينه على أمر ما. واستجاب فوراً، وكأنه ينتظر من يقوده!

ياأبا صابر، هذه رسالة وردتني خطأً في ظرف يحمل عنواني. التباس عجيب، لاأدري من هو المسؤول عنه؟ سر الامين، مبتسماً، وربت على كتفي بحنو، فأنا أقصر منه قامة، وأميل الى السمنة، كما اني أصغر منه سناً.

ـ هل تعرف كم اشكرك ياوهاب؟

واستغربت لماذا يشكرني على أمر لايعدو أن يكون واجباً في حالة شائكة من هذا النوع. رأى الدهشة، قال:

ـ كدت أشك في أخلص الناس، بعد هذا العمر ياوهاب، بت اخاف البشر، فما يجري ليس اعتيادياً.

لم أزل مستغرباً.

ـ هاك اولاً الرسالة التي تعود اليك، والتي حملها مظروف باسمي . . .

اذن فالقضية متبادلة، وهي من صنع دائرة البريد نفسها.

قال الامين هاشاً:

ـ الحمد لله، لأن اسرارنا لم يطلع عليها غرباء أخرون.

استغربت تعبيره، غرباء أخرون. اذن هناك غرباء.

دعني انتظر. تكررت ثانية في ذهني، ووجدتني أغيب عنه، لحظة واحدة، وكأن الانتظار يقودني الى مكان آخر وزمن آخر، وهي تشكو غربتها بين الأهل والأقرباء. قالت تخيلني منزوعة من قطر الندى، ومن سر الربيع، خالصة من الآخرين، فروحي تأنف أن تكون أسرى الملل الفاجع، وقلبي تخفق فيه طراوة تُزهر برعماً شفيفاً وأملاً نجياً عندما نكون سوية. الغرباء يا وهاب هم الآخرون، وكلانا ينفتح بهجة وشوقاً على الآخر، وكانت تسمرني بعينيها، أريدك انت وحدك. كانت سمر تقودني بعيدة عنه في لحظة الترقب هذه، بعدما، اعتقدت اني خال من اسرار الايام البائسة. . كانت عيناه تتسمران أيضاً، تستدعياني لأن أقول شيئاً، فعدت اليه،

ـ لكني يا أبا صابر دون اسرار، علاقات فنية وصداقات. . .

ـ نعم ياوهاب. ولكني افترض كل شيء. . وخير لنا الا نكون عرضة للابتزاز.

أدعي اني الان في حالة من اليقظة الكلية أو استنفار الحواس، كنت اشعر اني فتحت أذني، ولاأشك ان عينيّ لاتحيدان عن وجهه الآن، فأنا اتصوره أمامي، كياناً بشرياً كلياً.

لفظ الكلمة الأخيرة بتشديد لايخلو من الانزعاج، وايقنت ان

ثمة أموراً تجري في الخفاء، أجهلها، أو أتجاهلها، فأنا هاوٍ يرفض الاحتراف، كما يرفض الانخراط في التفاصيل. صحيح اني متفرغ لشؤون مرسمي، ولبعض قضايانا الزعفرانية، الا اني أخشى ان ينسحق ذهني في هذه التفاصيل، فيعيش الشتات . فأبقيت على حالة اللامبالاة تارة، والاهمال تارة أخرى، بينما يدعي الأمين اني سليل بعض الساخرين الذين عرفهم شارع الزعفران.

لا أدري هل كان جدّي فعلاً كذلك:

- لكنك ياوهاب تدرك ما تعنيه هذه القضية : تبادل رسائل في ظروف مختلفة؟ هكذا بادرني الأمين.

ادرك ذلك. لكنك ياوهاب تواجه الان بمشكلة ليست اعتيادية هذا ماكان يمر في ذهني عابراً حينذاك. فما انت العارف بشؤون شارع الزعفران، كما كان جدك أو أبوك، ماذا تعرف عن الشارع غير الغراميات الميسورة وبعض التفاصيل الصغيرة. الامين حدثك بنفسه عن عشيقته اللبنانية نوال، مطمئناً الى انك (بئر) عميق لايهدر ماءه بيسر. أما كواثر، فهي التي اخبرتك بعلاقتها بزيدان. بينما قالت (ثقاب) انها ضحيته طوعاً، قبل ان تختارك طوعاً هذه المرة أيضاً. أما «مثال» فهي سر مكين لم

تألفه او تتمكن منه على الرغم من كثرة مراجعاتك لدائرة البريد التي تعمل فيها الفتاة. .

قال لك لطفي الحامد مرة:

ـ لو كنت متفرغاً مثلك ياوهاب لانهارت امامي الاسرار وانهدت التفاصيل.

ولكن اية تفاصيل، واية اسرار؟ ها أنت تجلس قبالة ابي صابر حائراً، تستدرجك مفردة «الابتزاز»، وتستوقفك، حتى انك تبدو تائهاً في غرفة الاستقبال الضخمة التي اكتظت بالأثاث القاتم، الارائك والمفروشات والقناديل واللوحات الزيتية الضخمة. أبو صابر عالم متين متماسك، تشيد بعناية وحذر، له شركاته الخاصة بالنقل والاخرى بالمفروشات، وأخرى بالتجهيزات الطبية. رجل يمتلك ذهناً منظماً، هادئاً قلما يغفل عما يدور حواليه. انت ذاتك تراه مثالاً للتماسك والتخطيط وحسن التدبير، ومثلك أم صابر تعدّهُ مثالاً لرب الاسرة الموفق ورجل الاعمال الناجح. وصابر يراه قدوة، وابنتاه عالية وشذى تنشدّ الى نمطه الابوي.

عـائلة تفيض بالجمـال والحيويـة والراحـة.
وعندما حملن لي «الشربت» وبعض الحلوى المنزلية التي تعدها أم صابر خصيصاً لي، كما تقول، شعرت اكثر من ذي قبل كم ان شـذى وعاليـة مغريتـان، شقراوان فارعتـان مرحتـان. . آه. . ايها العمـر. . عمو وهـاب. . لعنـة الله عـليّ، مـاذا جنيت من عمري، العزوبية والوحدة. عمو وهـاب انتظرنـا الاسبوع الماضي، قالت عالية بصوت يضـج بنغمة فرح، واردفت شذى، كانت سهرة لطيفة، من أهالي الشارع. . لاغرباء فيها. .

- لاغرباء فيها .

سمعت جلال الدين يهمس لنفسه بصوت عميق مسموع، ليبادر بغلق باب غرفة الاستقبال فور خروج عالية وشذى: كـان يحمل همه في داخله ضاغطاً عليه، ليعصر رأسه بين يديه كما لم اره من قبل؛ لم يكن يتحدث بل يكابد بصوت مسموع:

- هل تتصور أن يتهدد بناءك العائلي واملك الحياتيّ كله من خلال الابتزاز الذي برعَ فيه زيدان؟ هـذا الموظف الصغير لم يدر بخلدي انه يمتلك كـل هذا

الخبث عندما جاءنا الى شارع الزعفران.

قد يكون حاسداً وهو يتابع حالة الميسورين هنا، ساعياً الى استثمار شؤونهم الخاصة استثماراً طاغياً يليق برغباته. انت تعلم ياوهاب اني نلت الشهادة الجامعية في الحقوق، واعتمدت على ما ورثته من والدي لأتفرغ الى اعماله وتوسيعها وادارتها. حرصت على عائلتي، ونجحت بجدارة. العمل الصحيح يقودني الى النمو دون مشكلات. الثقة بوليصة الامان، وهي ما امتلك. تصور عندما تزعزع الفضائح هذه الثقة. الثقة تكوين خاص وعام ياوهاب، والخاص او الشخصي يعزز مصداقيتك بين الناس أيضاً.

لاادري لماذا تذكرت حينئذ فلماً عن الانتخابات الامريكية، كان المتنافسون فيه يتبارون في اثبات مصداقيتهم الشخصية، عوائل والتزامات وابتسامات وديعة امام الشاشة. المنافسة الحرة تحتاج هي الاخرى الى انماط من المصداقية المظهرية. الامين في ميدانه صحيح هو الآخر، فعالمه التجاري يحتاج الى مثل هذه الوثائق المطمئنة. عدت اليه في لحظات، ولم تحد عيناي عنه اطلاقاً:

ـ لكل منّا هفواته ونقاط ضعفه .

كدت اصيح به، بديهيات يا أبا صابر، لكني وجدت وجهه محتدماً.

ـ لا أدري ما هو الحال بالنسبة لك، لكني اكثر من السفر سنوياً، وترتبت لي علاقة مع امرأة في لبنان، تعرفها انت، كما اخبرتك من قبل. تكثر نوال من المراسلات. ونحن نشكو من فراغ عاطفي ثمة حالة انسانية تطغى عند البعض وتضعف عند الاخر جراء الفراغ، فراغ المساحة الخاصة بالعواطف بعدما زاحمتها قسوة التقاليد داخل العائلة وخارجها. الانضباط الشديد في الاعراف يوجد نزعات التمرد. هذا ما قد عرفته من خلالك ايضاً. كما ان الانفتاح غير المبرمج قد يوجد الانحرافات. عندما تلقفتني نوال كنت مهيأ نفسياً. فأنا محايد عاطفياً، تركت نفسي عرضة للاختيار، فكانتَ قسمتي هذه الشابة المتعلمة، خريجة الجامعة الاميركية. لبقة متوقدة، تشعرني بالحاجة اليها. هناك شيء ما احتاج اليه لديها، ليس نزعتها في العمل اثناء تعاملي مع الشركة التي تدير سكرتاريتها، وليس جسدها الطويل، ولا ذلك الوجه العذب بعينيها العسليتين وشفتيها

النافرتين بحمرة مرجان شهية، ولا ذلك الانف الروماني . . بل هناك كل متناغم في شخصها، يشدني اليها. ومراسلاتها ذات شحنة خاصة، كأنها تعيد ترتيب الحياة، وتقدمها ثانية غير مألوفة. هناك جرأة مختلفة وابتداع مشوق، واختراق لما تعده سرياً أو مدفوناً. لهذا كانت الرسائل متعة لي . . .

كنت على وشك التساؤل فعلاً عن معنى السماح لها بكتابة الرسائل، مادام يبني جهده في ضوء استقرار عالمه ومبادئ الثقة التي يعتمدها، فالفضيحة هي سلاح من يريد تهديد مثل هذا الوجود، مهما بدت صغيرة واعتيادية. الامين يدرك ما تعنيه، وهذا خوفه وتوتره.

ذلك الصوت الذي طفق يتحدث كان يفيض بعاطفة تجعلني الان اشك في انه هو نفسه المسجى: أمامي الان، والذي اعادني صوت الحاج حمد اليه ثانية، وهو يؤدي الصلاة، كان حيوياً، يقدر على تحليل نفسه، وتفسير سلوك الاخرين بوعي يتفوق على غيره من رجال شارعنا النابهين:

فاجأني زيدان مرة بزيارة الى مكتبي في شارع السموأل، وبيده رسالة. كان صريحاً ومواجهاً:

- ألا تريديني أن اقدمها لأم صابر .

كان وجهي يجيبه، كما يبدو، اذ اضاف:
- لا أريد غير الفي دينار .
- لكنك تخون مهنتك. .
- بامكانك ان تشتكيني اذا اردت، لكني مزمع على ابتزازك.
كانت لحظات ضاغطة، وجدت فيها انه لايتورع عن شيء.
سلمته ماأراد، عارفاً انه يبني أوضاعه المادية عبر هذا السبيل معي ومع الاخرين. . لكنه جاءني بعد عام، يحمل عدداً من الرسائل المصورة.

- عرفت اني اذا ما الححت عليك، ستغير عنوان المراسلة، وكانت المهلة عاماً، كما أمهلت غيرك. . .
كان هادئاً، واثقاً من نفسه، عيناه الجاحظتان تندفعان الى امام بخبث غامض، لا استطيع النظر في عينيه . بدا عليَّ التردد، ولاحظ ذلك :

- بامكانك أن تردُّني او تشتكيني . . .
- انت تتحدى مسؤوليك وأقرانك . .
- يا أبا صابر ، انت ذكي ، وخير لك أن تعترف للآخرين بنباهة مقاربة . .
- ماذا تعني ؟
- اني بنيت عالمي الخاص ، شأنك انت. . والا كيف

اقدم على ما أنا مزمع عليه ؟

- تعني انك تشترك مع غيرك في الابتزاز ؟

- سمه ما شئت ، لكني الآن استثمر حرصي وحرص بعض زملائي على تماسك العوائل المعروفة . . .

فمه يفتر عن ابتسامة خبيثة ، صلفه وكريهة . وهو يعرض علي مجموعة من الرسائل المصورة :

- ماذا تقول في هذه ؟ سوف تنزعج أم صابر ، وكذلك الفتيات ؟ وتتهدم هذه العائلة المتماسكة ! الا ترى اني معني بأمر مثل هذه العوائل ، كما هو شأن صحبي وزملائي . . . !

حاولت أن اقاطعه ، لكنه طفق شارحا :

- وماذا عن شارع الاعمال ، شارع السموأل ، كم يفرح بهذا الخبر من بين منافسيك ، واين الثقة التي ابتعتها بتها سكك المشهود . . .

وجدت نفسي أتناول رزمة من الفي دينار من درج مكتبي ، لكنه تساءل دون خجل :

- كم ؟

- الفان ؟

- لا . . هذه المرة ، كما تعلم ، يختلف الجهد . . اربعة تكفي .

لم اجد بدأ من ذلك ، فالتوتر والقلق يمنعاني من التفكير ، ودماغي يمتلء بحرارة عجيبة ، كأنه موشك على الانفجار .

وجدت نفسي مشفقاً عليه . ثمة شعور ينتابني بأنه يسرف في تعذيب نفسه . فأنا مطمئن الى قدرة الانسان على مواجهة الحقارة وضروب النذالة الوضيعة . صحيح انه لا حقَّ لي في اسداء النصح . مذ لم أدخل تفاصيل الحياة بالشدة التي عرف بها الامين وجميع زعفرانيينا ؛ لكني اوجدت لنفسي هواية ثالثة ، غير مرسمي ومراسلاتي . اسميتها «الاحمران : الذهب والزعفران» متذكراً تحذير الخنيفة الأول ، الصديق (ر ض) من الانهماك فيهما . لكني قصدت بهما الاسراف في الشهرة والمال والاغراء . ومن هذا الباب وجدت ان أبا صابر يقدر على صد زيدان ، لو تخلى عن قلقه بشأن استقراره . فخوف من الفضيحة هو خوف من فقدان الطمأنينة . وجدت عينية تركزان عليّ ، كأنه يقرأ افكاري ، هزّ رأسه شاكياً :

- لاتعتقد انني تعيس او غبي ، لكنما الرجل نذل ، يخلو من هاجس الخشية أو تأنيب الضمير . حتى عالية لم تسلم من مسعاه للابتزاز عندما اراها رسائل غرامية مزورة

باسمها ، قائلاً انه سيعرضها عليّ . .

صحت مندهشاً :

- وماذا حصل ؟

فأنا احرص على الفتاتين كثيراً .

ـ لا . . جاءتني ضاحكة تشرح لي مايريده زيدان . ثقتها بي انقذتها من هذه الورطة ياوهاب .

كنت اجهل هذا الجانب ، واعرف غيره . تصورت مرة ان «زيدان» يمتلك ذكاءً منحرفاً ، لاأدري كيف تكونت عندي صورة الشرير الذكي كلما نظرت اليه . لاتحتاج الى وثائق وادلة في بعض الحالات . تأتيك الصورة عبر لقطات ، لكنها ليست كاملة ، ولايمكن ان تكون . ضحكت مرة عندما اخبرتني «ثقاب» انه تلقف كتاباً جاءني بالبريد عن تاريخ البريد في الدولة العربية الاسلامية . لم يكن مولعاً بالقراءة ، لكنه تلقفه .

ـ بعد يومين ، كان يجلس بارتياح مبتسماً ، ماسحاً على كرشه المدور بكفيه الممتلئتين . وسرعان ماسألني :

- ثقاب مارأيك باستحداث تسمية صاحب البريد بديلاً عن مدير البريد ؟

ـ ما الفرق بين الاثنين ؟ هل تأثرت بالقاب الهنود ؟

كنت امزح كعادتي ، لكنه قاطعني بحزم :

ـ يأثقاب صاحب البريد استخدم قديماً للتدليل على اهمية هذا المنصب . .

ـ لكنك لاتستطيع ابتداع التسمية لنفسك ،

ماذا بشأن اقرانك ؟

ـ في الزعفران نحتاج الى تسمية تليق بالشارع

وهكذا كان يفرح كلما ناديناه بصاحب البريد .

كانت تغمزني وهي تدلي بتعليقها الاخير . وكدت اضيق ذرعاً بنفسي وأنا استرجع مثل هذه الحوارات ، فهي تبدو لذهني المزدحم المكتظ الان بالصور والذكريات غريبة أو بطيئة أو حتى رتيبة ، تأخذ مكان غيرها ، لا أدري لماذا شعرت بالضيق ، كأن المراوح السقفية هذه تتبارى مع ذهني في دورانه ، فأنا اعجز عن التركيز شأن الاخرين . مفرداتي معجونة بالرتابة، وأنثيالات ذهني تتملاها اللامبالاة، تقطعها، تحيلها مجموعة اشتات، متصارعة، مزدحمة، متشابكة، قلقة تارة، ومهمومة متباطئة تارة اخرى، ولولا تعلقي بها ما كنت قد استعدت هذه الصور، ولولا صدمة المساء ما كنت قد قطعت رتابتي اليومية. . . وكأني اتصارع بين قطبين، الحب والحزن، الوجد والجزع، كنت اطوف ساهماً بين صورة سمر. . وجسد الامين.

الفقيد جسد مسجى في تابوت ، والناس يلتفون حوله .
وكلما قلت، لم أكن أولهم، ولست آخرهم، ومازالوا حتى
هذه اللحظة يتقاطرون، وكل قادم يود لو تقدم خطوة الى
الأمام، وقررت ألا اتزحزح من مكاني بجانب رأس
الفقيد. لكني أخضع لذهني الذي يقحمني الآن في
ماذكرته «ثقاب» مثلاً عن الفقيد. أعرف أن اللياقة
وصرامة الموقف يتطلبان شيئاً مغايراً، ولكن ليس باليد
حيلة، فها هو يعصف بي، مصراً على استعراض
احاديثها، تلك الماكرة الخبيثة :

مرتبكاً خائر القوى، هكذا رأيته
عندما جلس قبالة زيدان في دائرة
البريد . ولم نعرف ما دار داخل
تلك الغرفة بعد أن غادرتها . لكني
رأيته يخرج بعد دقائق لاهثاً،
والعرق يتصبب من جبينه الاشقر
العريض . لكأنه تصارع مع
زيدان، تقول كواثر. ويتعثر كمن
يكره الدنيا، وصفه عابد . وعندما
اطل زيدان، كان يبتسم. قال انه

اتفق معه على بناء منزل ملاصق
للدائرة يستخدم لاغراضها لكنه
هديته مشاركة مع لطفي الحامد
وآخرين لصاحب البريد تقديرا
لخدماته للشارع . من جانبنا كنا
نبتسم ، فلنا هدية أو مكافأة ما كلما
حقق زيدان صفقة كبيرة ؛ الدنيا
مصالح ، هكذا كانت حكمة بريد
الزعفران ، ونحن نتقنها باستثناء
المسكينة مثال التي تذكرني بحمامة
مخذولة تطير بعيداً عن السرب .

ليس من مجازاتك ياثقاب ، أخذتِهِ من الامين ، هو الذي
وصفها بحمامة مخذولة في السرب ، ولا أدري كيف وصلتك
التسمية ولكن اين وجه اليقين في الذي قيل والذي قد يقال . الامين
نفسه يبدو مذعوراً كلما تذكر زيدان ، فكيف به عندما يواجهه ؟

لماذا اتستر على أمور انت حر بمعرفتها ياوهاب ؟
كان يحاول تحرير نفسه من تكتم يخنقه ، وبدأ
كمن يزيح هماً ، حتى اني اشعر برأسي يمتد الان
نحو جسده المنسجى ، وأنا أحيا لحظات

الاستذكار هذه:

لم أفاجأ به عندما أتاني بسندات وشيكات عائدة لي حجزها عنده لأسابيع، ساعياً الى ابتزازي قبل تغييري لعنوان مراسلاتي الى (السموأل). كنت مستعداً للدفع على الرغم من ذلك، فهو سيحبك شراكه مع اقرانه في العنوان الجديد. قال وهو يريني صور نوال انها تصلح هدية لأم صابر. أمّا عربون صمته فهو المشاركة في بناء بيت ملاصق لدائرة البريد.

كدت اقول ليس هو السركله. فأنا اعرف الامين، رجلاً عملياً بارعاً، المال يذهب ويأتي، ويمكن أن يشطب على المبلغ بجرة قلم، وينتهي عنده الحس بالألم. ليس هذا السركله. كدت أصيح، لولاحبي له.

لم يزل مكبوتاً، حائراً، عيناه تشردان تهربان مني هنا وهناك، حتى كدت أصيح به، ياجلال الدين الامين افصح، لكأنك تختنق رعباً، عيناك زائغتان كأنما تنفران من كمد غامر، والغيظ . . . أكاد أبصرهُ في نظراتك وحركاتك، ماذا دهاك ايها الرجل المتماسك الودود ؟

ـ طاردتني شرور هذا الزيدان . .

تهدج صوته، ولم يكمل . . ثم نقلته همومه بعيداً

عني شارداً بعينيه القلقتين:

ـ لكل منا نقطة ضعفه ياوهاب . . .

· اكمل يارجل، فأنا لست في معرض انتقادك أو ادانتك . . لويمضي طليقاً لعرفت نصف أحاديث الزعفران ، وكانت أمامي اسرار زيدان . لكنه كتوم، يتعثر حتى عندما يبدو مستعداً للبوح.

ـ لكل منا نقطة ضعفه ياوهاب . كدت اختنق، محاصراً بمكائده، مضطراً الى ابتداع المنافذ، مهما عاكست طبيعتي. كنت اشعر اني ازاء عصابة فظة، عيونهم تطاردني، فعيناه توزعتا بينهم في داخلهم، على ثقاب و كواثر وعابد . . الا مثالاً. فقد كانت لغزاً: صامتة، كتومة، وجلة ومذعورة ايضاً، كأنها ارنب بين الذئاب: جذابة بقوامها الممشوق ووجهها الاسمر النحيف وابتسامتها الرقيقة. مزيج من الهدوء والاضطراب، هكذا بدت لي، تسرني

وتأسرني، هي وجهي الاخر، أو يمكن
ان تكون نقطة الضوء في عالم متجهم
تمثل لي بهذه الصورة عندما تجسد امامي
في بريد الزعفران.

شجعتني أو تجاوبت معي. فأنا أخاتل
في التفسير كما ترى، ومازلت أصون
تماسكي الشخصي حتى في مثل هذه
اللحظات.

أراك ترتاب في بعض ما أقول، لكني
ايضاً رجل داخله الوهن، ونخرفي عوده
كما تنخر الديدان في سيقان اليوكالبتوس
ومنها ما أورده الامين

مشكلتي اني انساق وراء التشبيهات لا أدري لماذا، لكن قاموسي زعفراني، وكلما جرت الاشارة الى رموز الزعفران وجدت ذهني مأخوذاً بها، متأملاً فيها، وفجأة تذكرت عشرات الاشجار المنخورة. وممرات الديدان في هذا الشارع، كما في بيتي عند واحدة من تلك الاشجار الباسقات.

ـ هزتني تجربتي مع زيدان، فبالغت في العناية بعائلتي، وبالغت في تحطيم جدران عاداتي القديمة. أي تماسك هذا

الذي أبنيه أمام نحس مستمر كزيدان ؟ كنت استجمع كل ماكبته في حياتي من ميل للتمرد والهياج، أصيح واصرخ وحدي، فأنا الآن صريع الاستقرار والرضا، والاطمئنان. ماذا لو كنت شخصاً آخر، هل يتمكن من تهديدي ؟ انه الان يطاردني بفضائح صغيرة، احتقرها، لكني اعرف انها يمكن ان تهد بنائي. واشتد عندي ميل للتمرد، وكانت «مثال» هي اللغز والتحدي..

احاسيسه اعترافات، واعتقدت ان الفتاة خذلته...

ـ وسرعان ماشعرت ان هذا اللغز ضحية اخرى من ضحاياه، احاطها بشباكه واغتصبها، وابقاها صموتة كئيبة، تدفعها فجيعتها اليّ. وماتت رغباتي وتحملت عبئاً آخر يدعوني لمقاومته، فهي الطريدة وأنا الطريد، أخترقها بنذالاته، ومرارتها اشد لانها ترى الاهانة اليومية في وجهه وسلوكه و حياته.

كان الامين يعيش مع همومه، تعتصره شأن مثال لانه يرى مصدرها قائماً وموجوداً، شراً مستطيراً وليس شخصاً محدداً. لم يكن يتحدث من قبل عن التناقض، ولم يألف الشك. كان جداراً من اليقين. عندما أفسر له بعض الاحداث، كان يقول «انت تسقط تهيؤات الفنان على الواقع» لست فناناً، أقولها له مراراً، فأنا هاو

لاغير. قلت له : الزعفران مستقر من الخارج لكنه يغلي في داخله. كـان يضحك، تهيؤات فنـان ياوهـاب، فلكل كـائن حي داخل وخارج، وعمر شائك متفاوت. هكذا يجيب الحقوقي الذي خبر الحياة العملية واجتهد فيها مجيداً أيضاً. واعترف ان الاعمار لها اثرها في ردود الافعال، وحتى في التفكير. فها أنذا أرى هذه المراوح السقفية تسبق ذهني، وأنا أتعثر باحثاً عن جملة أو صورة أو حدث أخطر مما يشغلني الان. أرى مخاضاً خلف الاستقرار ياأبا صابر. وزيدان يحيا في أجواء تتيح له هذا الانتعاش. ويجيبني مقاطعاً: انظر الى ام صابر، أنموذجاً للاستقرار الداخلي ؟ وأنا ايضاً ؟ والحامد ؟ التوتر يأتي مع الكبر أيضاً، انه قنوط المسنين.

لكني مرتاب فهل ارتيابي هو ارتياب المسنين ؟ حتى الغرين الذي الفته زعفرانياً في سواقيه يثيرني الان. ولم تستفزني طيوره كما هو أمرها اليـوم. حتى الغاق كـان موجـوداً منذ سنـوات، لكنه بـدا صاخباً، متقصداً، لجوجاً. غدير المتنزه حكـر عليه، يكـاد يغلق منـافذ السـماء عندمـا يحتشـد أسـرابـاً. ادعي اني سمعت بعض الاصـوات عندمـا كنت اطوف حـول الشارع خـلال الاسـابيـع الماضية، حادة متضرعة، يائسة أو مبتهلة . . لكنها فريدة . . منوعة من المألوف والاعتيادي كأنها قدمت من عوالم أخرى غير مرئية . . .

وتهزني الاصوات ، غريبة غامضة ، شاكية وملتاعة ، تقطع

انياط قلبي مرة ، وتثير عندي كوامن حزن غزير ، أسدلت عليه ستار النسيان ، لو سألتني عنه لما عرفته ، لكنه هناك ينبعث متدفقاً كلما اختليت بنفسي أو كلما حركتني اصوات النسوة الحزينات أو الجزعات ؛ وغالباً ما يهتاج الحزن لجوجاً في اغانٍ تحملها امواج الاثير ، اي أسىً هذا الذي استجمعته السنون ، تلك التي عشناها أو سمعنا بها ، أو تلك المتوارثة الملأى بالشوق المعذب . . . كنت في درب الزعفران ، أسمعها نحيباً وتإسياً ، لوعةً وانخذالاً ، واسمع فيها اصوات صبية الطاهر بن العلاء منتحبة ، زاهدة بالحياة ، مشترية الموت بالهزال بعد الرفض اليومي للأكل والشراب ، مادامت لاتقوى على الحياة دون الحبيب ابي الحسن العماني الذي انهكته مطالب أبيها الديوث . . . واسمع فيها عذابات الروح لا الجسد التي ضج بها درب الزعفران وجميلة بنت أبي الليث ، وليدة الكبرياء والجمال والجاه والبهاء والندرة العصية تقيدها حبائل ابن عمها المكابد المنتقم ، العاشق الثأري ، قبل أن تبلغها النجاة . لكني كنت اسمع أيضاً مكنون قلقي وحزني ، متفجراً حاداً ، يأتيني عَبْرَ تداخل الاصوات والمهمات والادوار ، من خلال صورة ابراهيم بن الخصيب مرة وهو يبلغ المراد تارة ويفقده تارة أخرى ، ومن خلال ابي الحسن العماني ، وهو يفقد تعويذة النجاة والشفاء لتنكتب الصفرة الدائمة على وجهه بعدئذ ،

وتصبح حياته مرهونة بالبحث عن مرفأ آخر هو العشق الذي انقاد اليه في صبية الطاهر . . الماضي يتداخل عندي في حاضري ، وقلقي وتوتري يجعلان ذهني مسرحاً لقصص وحكايات ، فيها المكابدة واللوعة ، العشق والمذلة ، الحب والكراهية ، الرأفة والبطش . . . كنت اطرق ساهماً لمرات ، قبل أن يعود نظري متمركزاً ثانية على الامين . .

عندما كنت ألمح هذه الامور، قلقاً في بعض الاماسي عند حدائق منزله ، فان نظرة شك كانت تغشىٰ وجهه كأنه يظنني مجنوناً. كلما أطلنا الحديث أجد نفسي منساقاً أنا الاخر الى الاعتراف، والبوح المتصل، مكتظاً بالهواجس والأخيلة والتهيؤات. ألهو مع ذاكرتي، فلمن اتحدث ان لم استثمر جلستي الطويلة مع الامين ؟ كنت ألهو مع ذاكرتي، وخواطري وملاحظاتي، فلكل منا غرائبه وحقائقه، أو لكل منا همه الذي يعيش معه أيام الزعفران، كما تسميها العابثة اللعوب ثقاب.

لم تكن تستهويني، لكني أكثر التردد على دائرة البريد، ومراسلاتي هي سلواي، تستقبلها ثقاب بعناية، وشوق في بعض الاحيان،

قالت لي :

ـ ليس في منظرك مايغريني، لكني على وشك الانسياق وراء تجربة معك !

ـ لا امتلك مايغري كما تعلمين .

قالت جذلة :

ـ دعني أرَ منظرك أولاً. متوسط ، ممتلىء، حنطي ، اسود الشعر . . وجه مدور . . وشفتان ممتلئتان . . لست سيئاً ياوهاب . .

ـ لكأنك تبحثين عن العلامات الفارقة ياثقاب . .

ـ لا . . أبحث عما تدركه المرأة . .

ضحكت ، ضحكة ماجنة، أو خليعة ، فهي تحتويني بنظرات شبقة، تمسح بلسانها على شفتها المكتنزة بتلذذ وشهوانية ، استقبحتها في البدء، لكنها بعض من شخصية هذه المرأة. صدرها النافر يدعوك الى تأمله، ونظراتها تقودك اليه وكأنها تخشى التغاضي والاهمال . . مالي وهذه المرأة ؟ لم أكن عفيفاً حينئذ، لكن لي تصوراتي حول ما أهواه.

ـ أنا مدعوة الى فنجان قهوة عندك يا وهاب ؟

تلعثمت، فهي أكثر مما افترضت.

ـ اين؟

ـ ليس منزلك بعيداً ايها الرجل، ووقتي المناسب بعد الظهر. .

من العيب أن أرفض أو أماطل، عند ذاك أبدو مقتراً أو جافاً أو غليظ الطبع، وهو مالا أرتضيه، فأنا أخشىٰ مثل هذا اللوم و اتفاداه.

ـ لاتتردد فلدي ما أقوله لك.
أضافت بدلال، هامسة ذلك في أذني، بينما دعكت ركبتي بأصابعها عندما كنت جالساً قريباً منها في غرفتها بدائرة البريد.

ـ سوف تدعوني بين يوم وآخر، هذا ظني، وقلما يخذلني ظني. .

ـ اخبريني بما لديك، والقادمات من الايام حبلى كما أرى. .
لم أكن ارىٰ شيئاً لكني لم أجد ما أقول. .

ـ دعني أجلس أولاً، والقهوة ثانياً. . ومعاونتي في اعدادها ثالثاً. . .

تحركت وكأنها اعتادت مجالستي منذ زمن. وهيأت القهوة بهدوء، وعادت كمن ألِفَ منزلي، واضعة ساقاً فوق أخرى، كاشفة عن

جسد بض، بينما راحت يدها تعبث بأزرار قميصها بتقصد واضح.
هذه امرأة تتجاوز الحشمة كثيراً، وتثير شهيتي وشهوتي، كما انها تعيش لحظاتها كما تشتهي. وسرعان ما قاطعتني قائلة:

- اتستغرب ميلي اليك؟ وأنا المرأة الشهوانية الماجنة في نظرك؟

لم اكذبها. هززت رأسي موافقاً.

- لكني اشتهيتك، لاني عرفتك منذ زمن. عرفت داخلك!

فوجئت:

- عرفتِني منذ زمن؟

تساءلت مستغرباً، فأنا لا أعدو أن أكون مراجعاً متكرراً لدائرة البريد..

- لكني طالعت رسائلك خلال اكثر من عشرة أعوام كما قرأت ما يأتيك!!

فوجئت ثانية، فلست رجل اعمالٌ يستحق الابتزاز على نهج زيدان، ولست أكثر من فنان هاو. كان السؤال مرتسماً على وجهي:

- حلفني زيدان بذلك عندما شعر بجفوتك ومكابرتك!
- لست كارهاً له، لكني لا استمريء الرذيلة.
- ليس هذا من شأني، قدم لي زيدان الهبات والعطايا لأعثر على

هفوات في مراسلاتك تستحق الفضح أو الطعن.
- لكنه ليس أميناً لمهنته؟ ألا يخاف المسؤولية؟
- ليس هذا ما يهمني، فذاك من شأنه، لكنه فعل ذلك.
- ماذا كانت النتيجة؟

كنت جاداً، وأحزر اني متجهم الوجه الان. لكنها كانت لاهية في أمر آخر:

- ياسني العمر كم عَشقْنا ولكن

عشقُنا المر أوقد النار فينا

هو هجر، عذاب لانبتغيه

انما دونه نعيش الظنونا

قاطعتها كمن يخاف النقدة:
- لكنها قصيدة أولية كتبتها لصديقة لي لا تجمعني بها علاقة كالتي تظنين.
- لم أقدمها لزيدان، بل حفظتها لنفسي. انها من مستواي يا رجل، وكانت بداية علاقتي بك...
- علاقتك بي؟
- نعم. بدأت أقرأ لك بامعان، رسائل واقاويل وتعليقات وشروح ودعابات ورسوم تخطيطية.. كنت تتكامل امامي تجسيداً،

فشغفت بك . .

ـ دعيني اقاوم اغراءك هذا . . قلت انك مارست الدور نزولاً عند رغبة زيدان .

أضافت هازلة :

ـ قدمت له خلاصات مضحكة ، قلت له لا أمل فيك ، رجل بلا اسرار ، خالي الوفاض ، عديم الشأن . . .

ـ عديم الشأن؟

ـ أعني انك النمط الذي لايهم زيدان . .

أطلقت ضحكة متهتكة ، وهي تغمزني :

ـ اتريدني أن استعرض امامك كل شيء هذا اليوم؟

لم تكن امرأة ساذجة ، فها هي تنتقل بخفة رشيقة لم اتخيلها من قبل في جسدها الممتلىء ، وتضع مقطوعة موسيقية راقصة في جهاز التسجيل لتصدح في صالة الاستقبال ، ووجدتني من دون رغبتي بين ذراعيها . لم تمنحني فرصة الاعتذار أو المراجعة ، كانت تدعك لي ظهري بكف وتسحب رأسي نحو صدرها بالاخرى . . . قلت من قبل ، صدرها النافر عارم يجبرني على الاذعان . . فأنا طيع ومسالم أيضاً ، وها هي تحرص على ان تحيطني بذراعيها ، تقربني تارة وتبعدني تارة اخرى ، أسير اللحظتين . ومضت في تنفيذ ما تشتهي لايام ، فهي ظمأى ، تعشق وتحن حتى تشبع نزوتها من الرجل الذي

صفحة مفقودة

ـ وهذا ما يجعلك تطوف بحرية اكثر بين الموضوعات؟

ـ ولكن هل يصدق انك تنشدين اليّ من خلال هذه الرسائل والمكاتبات؟

ـ الحبائل يا صديقي تنقلب شراكاً، وأنا اسيرتها الان كما ترى!

ـ هذا فقط؟

ـ انت لاتقدر نفسك حق قدرها . . .

ـ لكني اعي حدود ما أملك . .

ـ وفنك؟

ـ اعتيادي! انا هاوٍ ، وكما ذكرت . .

ـ رب هاوٍ يتفوق على المحترف.

ـ وماذا اعجبك في رسومي؟

كان بودي امتحانها. وادركت ذلك:

ـ هل نسيت اني زرت معرض (الزعفران)؟

ـ وأية لوحة؟

ـ المسبحة المنفرطة . . والاصابع . .

ـ هما من لوحاتي الاثيرة . . الاصابع . .

كنت على وشك المضي في الامتحان، لولا انني ترددت. وتخيلته ثانية، اصابع عابثة في زاوية الفضاء. وثمة اصبع أو بقاياه بين خرز المسبحة المنفرطة . . ووجدت نفسي ضحية هذه الاسترجاعات

وعودات الذاكرة، فأفصحت بعفوية:

ـ لكنك تمجيّنه أيضاً رغم سطوته وعنايته في آن واحد؟

ـ امقت حياته، استخدام غير نبيل للوسائل المتيسرة لديه، كما انه يهين المرأة لدي!

ـ لكنه يجهل الحب. . .

كنت افترض لاغير. .

ـ اعرف عن زيدان كما لايمكن لك ان تعرف عنه. فهو ليس (المبتز) حسب والا ما كان بمقدوره التصرف بهذا الدهاء ولا بهذه الثقة. . كما انه قد يكون وجهكم الاخر، هل تعرف شيئاً عن ذويه؟

ـ ذووه؟ اعرف انه موظف جيء به الى هنا منذ سنوات!

ـ الموظف البسيط لاينمو شأن زيدان، املاك وامتيازات وسطوة ونفوذ. .

اعادتني الى عقلي ثانية، فهل يصح أن نستمر في الحديث عن زيدان كما عرفناه أول مرة؟ انه لم يعد الموظف الساذج، كما اننا كنا سذجاً عندما تصورناه كذلك.

ـ يا عزيزي وهاب، هكذا وانت خالي الوفاض من الهموم في الاقل. .

ـ لست مخبراً مختصاً كما تعلمين؟

طلبت مني سيكارة، واتجهت الى أريكة تشرف على باحة المنزل، حيث تتوسطها حديقة مربعة صغيرة من الشجيرات والورود.

قالت غامزةً،

ـ منزلك من الخارج يبدو كتلة مغلقة محاطة بحديقة ضخمة مسورة؟

ـ لكنه منبسط من الداخل .

ـ شأن صاحبه . .

أردفت ضاحكة، انها لاتخلو من جاذبية. وسرعان ما تلبستها حالة من الجد:

ـ لنلعب لعبتنا بإتقان، فنحن نحتاج الى بعضنا، لكني احذرك من (غيرتي). افعل ما تريد سراً، وستجدني طيعة هادئة.

ـ لكني هاو، غريب، متناقض، رقيق، وقاس. .

ـ الحياة تتشكل من التناقض. .

اذن اصبحت أسيرها منذ الان، مرغماً، فهي سهلة وصعبة، طيّعة ولها شروطها، وها هي تفترض من جانبها اننا شرعنا بتعميد هـذه العلاقـة. وتسميتك تليق بـك كـما أرىٰ. واعـوذ بـالله من حرائقك، عيدان. . وثقاب. لم يخطر ببالي ان الاسمين يجتمعان على مثل هذا الدمار.

ـ وما الذي تكرهينه لأتجنبه يا ثقاب؟

تساءلت كمن يريد اعداد الجادة منذ البداية، ميسورة ومعبدة بعد ما وجد نفسه موضوعاً في طرفها:

ـ هل تنوي التخلي عن غانيتك؟

ـ من.. ؟

ـ سمر..

يا امرأة، هذه ليست غانيتي، هذه لوعتي، هي الرقة والجاذبية والعذوبة. وارتسمت انذاك أمامي، تخطو كمن يخشىٰ ان يطأ الارض، خفيفة رشيقة، ممشوقة القوام، خصرها يشدني كما لم أشد الى أخرى، بينما تختزن ذاكرتي وجهها، بعينيها الصغيرتين السوداوين كالليل، وانفها الدقيق، وفمها المدور الممتلىء كحبة كرز ناضجة. ويلك يا ثقاب.. تقصدت هذه التي يرن هواها في قلبي وذاكرتي، وهي تصرخ رقيقة ومشتاقة، ساكنة وهائجة، مجمعاً للهدوء والعاصفة..

تقصدت هذه التي تختزن حنين العالم ورقته وعذوبته وبلواه. هذا الطائر العذب الذي يتماسك امام الاخرين بعينين لا يرتدان مطرفين، لتذوب في يدي وحدي، أخاف. هكذا تهمس همساً كالنحيب، مهصوراً في رقة الموسيقىٰ التي تصدح بها حنجرتها. وتركتها تهمس في أذني وجلة خائفة، فهي لاتعرف الاسراف في

الكلام وتمج اللغو والثرثرة. لكنها تهمس بما في داخلي، تتجاوب مع روحي، فأنا الاخر قلق متوتر ذلك النهار. ثمة شعور ينتابني، مرير وتعيس، ازاء خسة الاخرين. كنت اترقب دون وضوح، هاجس ما، في قلبها كما في قلبي، يعتصرها كما يعتصرني. لكنها لحظة الشوق التي عشناها، قوية جلدة منتصرة، نبيلة حية تتقوض عندها امراض الاخرين وخستهم. انها اللحظة التي يهدرها الخسيسون عادة، وحسبها ان تبقىٰ في الذاكرة شاهداً، هذه التي تسعين الى هدر شوقها وشوقي يا ثقاب؟

ـ نحن نبتدىء الان ولكل منا حياته كما تعلمين. . ؟

ـ دون أن تكيدني؟

ـ ولِمَ أكيدك؟

ـ أنا أكره المرتبة الثانية في المباريات. .

اذن، فالجادة ليست معبدة، وفتائل الانفجار الموقوتة قائمة بين لحظة وأخرى، سعيت الى تغيير الموضوع نحو زيدان:

ـ قلت ان علاقتك به قديمة؟

ـ منذ زمن . .

ـ تحديداً

ـ منذ بدء علاقتك بسمر

قالتها بتشفٍ هذه المرة .

اذن عدنا الى الاحابيل . لابد من ان يكون زيدان قد وضع خططه للضغط عليّ . هل لي أن أعلن أوراقي وأصيح بها ، كل شيء الآ سمر ؟ لا . . دعني أحتوي غضبي وغيظي ، وأسقط خطة ثقاب بحذر ، فقد تكون متبرعة بممارسة لعبة ما ، رغم قناعتي بصعوبة بلوغه سمر . لكنه الصندلاني ، خالياً من الحب .

ـ تحديداً ياثقاب دون أحابيل ؟

ـ منذ بدء علاقتك بسمر، ماذا في ذلك ؟

ـ اتظنين اني أجهل الاعيبه ؟

ـ لكنه ليس ميالاً لها، أو عاشقاً كما تعلم . .

ـ أعرفه تعيساً لايقوى على الحب

ـ أظنك تجهله . .

ضحكت ، ساخراً .

ـ يحب أمه كثيراً

قالتها بجدية ارتسمت على ملامحها .

ـ لكن المحب ينأى عن الرذيلة . .

ـ ليس دائماً، كما تعلم،

كنت مطرقاً، أستعيد مافعله الصندلاني بابنة عمه،

-- لكنها كانت تناكده وتتحداه . . .

همست لنفسي .

واعادتني ثانية الى الحوار ،

-- لاتظن انه يكيد اليك كثيراً مادام يعي حدود صراعك معه . .

قالت منتصرة :

-- تتحدثين عنه بمعرفة دقيقة ، وكأنك عرفتيه منذ سنوات طويلة ؟

ثم طفقت تتحدث بعدم اكتراث :

- منذ زمن لأني ساعدت في اعداده وتكوينه، وهو يرفدني بالعون أيضاً. لكنه محطتي الدائمة، يسرني مرة ويزعجني مرات، أما انت فلك شأنك. .

- لي شأني. . ؟

- بالنسبة لي، انت حلم التمرد الذي تحدثت عنه في واحدة من رسائلك.

وتذكرت تلك الرسالة، ناقشت فيها تجسيد الاحاسيس في الاعمار المتباينة، مع صديق لي يحترف الرسم :

هل يبتغي الفن الاستقرار؟ ان السؤال شائك، كما هو الأمر عندما نستفسر عما اذا يتحقق الحب عند الاستقرار، فكلاهما حركيان، لايتوقفان، مزاجهما يخشىٰ التوقف، الذي هو الموت. كلاهما له حلمه أو احلامه، وبذرة التمرد تكمن في أصل هذا الحلم، حركة دائبة، مهتاجة تارة ولاذعة بنكهة خاصة تارة أخرى. كلاهما يخشىٰ الرضا الذاتي، فهذا الرضا مرض التفسخ الذهني، حيث يقود الركود الى الموت، والاعتقاد بالاكتمال الى الهاوية. انه الرضا المريض، الذي يترادف مع الكسل والفتور الذي ينخر المشاعر كما ينخر الفنون، وبدون ذلك المشعل المستعر، ذلك القلب المتوقد في العواطف والابداع تختنق الحياة وتعيش فسادها الذي لايأتي بغير الموت المحقق.

كنت تقول ان الحياة تقدر على الاستمرار في حلقات الركود، واشرت الى روتينها متمثلاً بالاف الزيجات البائسة، لكنك تخلط بين المسعىٰ للتناغم الاجتماعي والالفة وميل الانسان الغريزي للتوالد والاستمرار وبين معنىٰ الحياة، فحتىٰ الميول الغريزية تمتلك حيويتها، متمثلة بالشعور بالمساهمة في ابتكار صيغ الحياة وتغذيتها ورفدها

إنما موت الاحاسيس شيء آخر، فهو الاندحار في اشد
حالات الازدهار والرخاء المادي. ترى ما عدد اولئك
الذين يبحثون عن الخلاص في احلام التمرد، وماعدد
اولئك الذين يواجهون الاندحار كل يوم، مقيتاً متمثلاً في
سلسلة من حالات التبلد والضجر؟ ان الفنان يحتاج الى
ينبوعه المتجدد في ذهنه أولاً قبل أن يتجسد خارج هذا
الذهن، تماماً كما ان الحبيب يحتاج الى ذلك اللهب الذي
لايخبو ليبقىٰ أميناً الى رنة ما تنقل اليه حبه مجسداً من دون
حدود متجدداً دون فتور.

وهل يبقى الرهان قائماً بهذه الصورة؟ وماذا يحصل عندما
يكبح جماح الحساسية الفنية أو بديلها العاطفي مثلاً؟ كان الموضوع
يطوف ايضاً في ذلك النمط من الحساسية المفرطة التي تجعل الفنان
مصادراً اجتماعياً، أو غريباً أو متجاوزاً للمألوف أو المعتبر أو
السائد. سرحَ ذهني في بقية الرسالة،

المجتمعات المغلقة تولد كبتاً خاصاً عند هؤلاء، أو انهم
يمارسون كبتهم الخاص، كبحاً للأحاسيس الفعلية أو
المخلوقة ابداعاً، فالكبح الاجتماعي أو غيره يمنع عليهم
الحالتين، ولهذا يموت الابداع عندهم أو يتدنىٰ، فتبتدىء

المحـركات عملهـا موانـع ومثبطات خشيـة انفسهم أو محيطهم، كالعائلة والمؤسسة والمجتمـع. وسواء كـانت الذات الجائرة في المجتمع المغلق هي الكابحة أو مارس دورها القارىء أو غيره من القوى الضاغطة أو المقررة، فـإن ينبوع الابـداع يتعرض للجفـاف أو النضـوب أو الهدر، وتبقىٰ القدرة على تفجير المكبـوت خاصـة، لها نكهتها ومواصفاتها ورموزها وعوالمها. ويرى البعض ان هذه القدرة أبلغ من غيرها في تأسيس حركية الابداع، متعثـرة أو منسابـة، صحيـة أو مـريضـة. . . وتـأخـذ انفجـارات الكبت اشكالهـا وصياغـاتها حسب طبيعـة الشخـوص والمبدعـين وامكانـاتهم وارصدتهم الـذهنية والاجتماعية والثقافية والمتعلقة بطباعهم أويتطبعهم.

كنت سارحاً، كما قلت، الموضوع ما زال يثيرني، ولم أكن قد وفيته حقه في رسالة يومية مثّلت بعضـا من مراهنـات الاصدقـاء واختلافهم، أما بداية المناقشة فكانت تتعلق بالنزوات بصفتها بعضاً من صياغات احلام التمرد. ومهما بالغت في ذكاء ثقاب، الا ان اهتماماتها تخص «النزوات»، لا الابداع ها أنا استطرد الان عجوزاً أو شخصاً أجهده العمر، اشعر بذهني يلتف ببطء بينما تسبقه حركة

الاشياء، كنت اتابع ما يفعله الحاج حمد بعينين متعبتين، وذهني يمضي رتيباً ثقيلاً ينسجم مع تلك الاجواء التي تنفست الاكتظاظ الان. فلم أر آخرين يتوافدون بعد ما ازدحمت الباحة ببشر مسنين ورجال وشباب واطفال..

كمن يصاب بالصداع أو يختنق كنت متكاسلاً، لولا اني سمعت لطفي الحامد يخصه بالسلام عند قدمي الفقيد، بينما يقف صابر والرجل الغريب ذو القبعة الخفيفة خلفه، يصوبان انظارهما الى الجنازة، ويوجهان بين الفينة والفينة نظرة حادة مركزة الى زيدان. ولكن ماذا أرى؟ طرف رسالة في جيبه العلوي، وثلث مظروف آخر من جيبه اليمين؟ حتى هنا ياصاحب البريد؟ اية رسائل وأية مكيدة تجول في ذهنك اليوم؟

- لولا معرفتي بتأريخه لقلت ان شاغله الان هو رسائل الاخرين.

هكذا قالت ثقاب.

ان ما أريده الان يا ثقاب هو كيف ترين هذا الرجل، فهو أوصال رسائل تبحث عن اضطهاد الآخرين. هذا ما أراه. انه الفضيحة متجولة عابسة، همها ان تهين وتغدر.

تبتعد عن الموضوع قليلاً، وكأنها لاتريد الاستسلام الذي ابتغيه.

- من يطوق ذهنه بموضوع واحد لايعطي كثيراً، ولا تشعر به المرأة حبيباً.

استغربتُ، ولاحظتْ ذلك:

- هل تعتقد ان كواثر تحبه؟ لا انها تحتاج اليه، فهو الذي يعينها على مواجهة اعباء الحياة. اما اذا اردت ان تطلع على ما لديه من عـواطف فتعال اليّ. أنـا الحبيبة والأم، الخليلة والنـد، أنا الطريد-والطريدة. كلانا يعرف حدود الاخر. اقوده ويقودني. نحن إلخلطاء.

- ما الذي وجدتِه جذاباً فيه؟

- غر، هذه مشكلتك.

قالتها بتأفف أزعجني قليلاً، واستدركت:

- نصف حياتي مصالح، ولا أدري بحياتك. وانا الان بمعية رجل يتقن لعبة الحياة. وهو ليس قديساً، ولا أريد أن اكون قديسة.

لجـوجة فـاتنة ذكيـة ،لكنها ليست عصبيـة. هذه اسيـرة الشهـوة وسطوتها، تحياها حد الانهاك، تلتهمها، تسوطها بـاحثة منقبـة، وتتركها لاهثـة متعبة، وثمـة راحة نفسيـة تحققها من هـذا الكد اللحوح المتبرقع بفتنة الجسد وفطنة الذهن. قد اتمكن من احتوائها لـو رغبت، لكني أسيرهـا أيضـاً، فهي تبلغ ذلـك التقـاعس في

شخصي، ذلك الحذر المنسحق امام سطوة المرأة المغامرة اللجوج، وهكذا كنت اتراجع أمامها، وعينا سمر تحثاني على المقاومة، تنتقل طيراً عذباً، ونسمة روح يهفو لها القلب، لتدخله رائقة نضرة، تصمت لحظات، قبل أن ترفع عينيها اليّ لاقرأ فيهما انثيالات قديسة اخترقت حجب دنياي، حجب الآخرين، تنتقل وئيدة، وثوبها يمسح الارض، ترفعه،

قالت: أوساخ طريق،

قلت: لا.. بل طهره..

قالت: كيف؟

مثلك لا يسألني، فأنت المغامرة في هذه الدنيا، تطوفينها وهي ملأى بالاحابيل، تطوينها على قدميك وحرقة حرى تلسعك لتبلغي الحبيب، تسعدين برؤيته، في تلك الايام اللاهبة، تغدين حاملة كبرياءك معك، هديتك اليه، طاهرة شفيفة، رقيقة عذبة، قوية ومكابرة، والجسد الصغير يتجلى عالماً من الاخيلة والرؤى والاعاجيب.. يتفجر في اكثر من ينبوع. يغمرني.. ويشدني، يريحني ويحتويني، يتداخل في لحظات طهور عجيبة، رطيباً شيقاً، يجدد عندي الرغبة والأمل، نضراً كنت أعايشه، اناجيه، اداعبه واحتويه، نفترق لنتوحد، نتباعد لنلتصق، كياناً واحداً، يتحاور

ويتحادث ويتخاصم ويأتلف ويتحد ويسعد ويشقى. . ذلك الجذب العجيب. . جذب الشوق ووجده. . ثمة عطر مختلف غريب حاد، شهواني يستعيدني. . ليست لحظة عادلة، طيف سمر يملأ روحي، وثقاب تستقر جالسة كياناً دنيوياً ملحاحاً. . وجدتني أحاور نفسي، تريدين مني أن اشتريك بسمر؟ كانت صورتها في ذهني تشغلني عنها، وتغمرني بدفء عجيب، حاولت أن ازيحها قليلاً عن ذاكرتي لأتفرغ الى ثقاب، لكنها طيف عذب ملأني، امتزج في جسدي، أُحسه واشعر به، اطوف به، في ثناياه، كما يلتف في داخلي، اتنفسه وأحياه وألاطفه.

لم أدرك من قبل معنىً أن يحب الانسان.

كمن يغار من شرود الذهن، كانت تجري من يدي، فحاولت مشاكستها أو استدراج اجواء الارتياب ثانية لأعيش فيها طيلة وجود ثقاب:

ـ ماذا لو عرف بعلاقتك هذه؟

ـ لربما يعرف، لماذا تظنه يغار منك؟

ـ الا يمتلك عاطفة نحوك.

ـ انه ماكنة، وقوده عواطف من نوع خاص، وقد ينتابه الفرح كلما عرف بهذه العلاقة.

ـ وأنا، الا تخشين انزعاجي منك؟

ـ لا . . انت لاتنزعج ، فأنت ادرىٰ بحدود هذه العلاقة. كما انك لاتنشد المعارك. انا وحدي من يستطيع خوض الفتن . .

ـ قد لا يصدقك احدنا؟

ـ كلاكما . . فأنا اتلقف اسراركما. وادعي امتلاك نصف ما تعرفون عن انفسكم.

ـ لنعد الى الموضوع ، لماذا يبقي على نفسه أسير انشغال واحد؟

كنت جاداً، فمعرفتي به لا تعدو رؤيته مبتزاً عجولاً في الكسب متسلقاً اجتماعياً في محيط أثار فيه الغيرة ومسعىٰ التعويض. نظرتها اليّ ملأى بالارتياب، نفثت دخان سيكارتها في وجهي كأنها تتقصد ازعاجي، فأنا اكره دخان السيكائر.

ـ اتريدني أن اعتقد فعلاً بأنك لاتعرف عن زيدان غير ما تقول؟

ـ المشكلة فيك انك تفترضين فيَّ ما لا أملك ، فمعرفتي محدودة، ولم أر في زيدان غير مبتزّ لشارع الزعفران.

ـ لكنها نصف الحقيقة، ألم يحدثك لطفي الحامد بشىء . .

ـ متعب وصموت منذ سنين . . .

ـ لكنه خير من يألف الاسرار ويعيش معها . .

ـ اراه يتحاشاها هذه السنوات، ويرتاب في مَنْ يبحث عنها . .

ـ لا ، انه يرهب جانبي ويخشاه ، فنصف اسراره جاءته من خلالي . .
عندما أقام علاقة عاطفية معي لفترة . .
كالمصعوق قفزت من مكاني، أكاد لا أقوى على حمل رأسي ،
فأنا مصاب بدوار الان . .
ـ علاقته بك . . لطفي الحامد، هذا الرجل الوديع التقي! !
ضحكت بفرح ، وكأنها عدّت ما أقول شهادة أخرى في التدليل
على عبقريتها الخاصة في مدّ الشباك واقتناص الرجال .
ـ لماذا لاتقول عنه ، هذا الرجل العازب الوديع . . ؟
كانت تغمز ، متقصدة انتقادي ، فأنا أعرف حرصها على الالتقاء
بالعزاب ، لعلها تستقر بعد هذه الرحلة ، امتحان لها وللطرف
الاخر . لكنها سرعان ما أضافت :
ـ استغرابك يؤكد التزام الحامد باتفاقنا على حفظ أسرارنا الخاصة .
ـ اتفاقكم . . اي اتفاق؟
ـ طلبت منه أن يقسم بعدم الخوض في موضوع هذه العلاقة . .
ـ واذا ما انكشف السر؟
ـ اذا كان مسؤولاً يتحمل التقصير وليس صعباً تدبير مكيدة أو
اكثر . .
ـ مثلما تم تدبيره للأمين مثلاً . .

ـ لا . . الامين مجرد «طعم» ومناكدة، لماذا لاتتذكر مراد؟
ـ وجد غريقاً . . وطائر غاق مربوطاً الى عنقه . .
ـ كان سباحاً ماهراً، كما تعلم . .

لساني ينعقد من هول المفاجأة، واستطيع تصور وجهي تعيساً منقبضاً، فثمة حرارة تلسع أذني، ومعدتي تفور مضطربة، وصورة الغريق ترتسم أمامي، كدت أتقيأ، لكنها مـلأت الجلسة وغـرفة الاستقبال، واجتاحتني كياناً ضعيفاً تحيط به الالغاز وتزدريه المكائد في شارع الغموض والريبة، اي زعفران هذا الذي تتمجد بـه يا رجل؟

ـ لست انا المسؤولة، كما تعلم، لكن الخلطاء يمتلكون علاقاتهم، وهي تتشابك مع غيرها، من أجل نهاية ما . .
ـ مزيفة غالباً .

قلت، وأنا الفظ الضجر والانـزعاج والقـرف من نفسي ومن الآخرين، اية حياة هذه التي يذهب فيها العمر معتلاً بالاحابيـل والخدع والوساوس ومنهمكاً بالمكائـد والآلام والتعاسـات؟ هاو، قلت عن نفسي، لعلي أهرب، وها أنا أجد الدنيـا تلطخ روحي بقبيحها وقيمها تخيلته شاباً أليفاً طيباً وشجاعاً، روحه الـرياضيـة الشفافة تجعل من ذلك الجسـد الاسمر الفـارغ محبباً، لكنـه راح

ضحية النزوات والمراهنات الصغيرة.

- ما أمره؟

- أحبني بتطرف وغيرة دفعته الى الثرثرة والمشاكسة، والساحة لا تحتمل المشاكسين...

ذات صباح في نهار صيفي استقطبت الصرخة الحادة اسماع الزعفرانيين وغيرهم، اغلبهم يستيقظ مبكراً، كانت صرخة امرأة قاطعة أتتنا من جرف النهر، فأسرعنا نحوه مذعورين مرتجفين، فنحن لم نعتد الهزات والعواطف الحادة. نحن الزعفرانيين نحيا ببطء وارتياح ونبتغي الهدوء العذب، حتى افراحنا واحزاننا نغلفها بهذا الهدوء، وابتسامتنا ودموعنا تمر هادئة وديعة. نحن نخشى ما هو عنيف، البكاء الشديد يذعرنا والفرح الشديد يخيفنا أيضاً. لكنها صرخة حادة قاطعة استدرجتنا قانطين نتلفت يمنة ويسرة الى مصدر الصوت. فالارتياب أصبح ملمحاً من ملامح حياتنا في السنوات الاخيرة، تقرأه في الوجوه، وتراه عندما تسأل أينا في ذلك الشارع عن أي شيء أو أمر، فنحن ننظر اليك بريبة ما دمت غريباً. لماذا تسأل؟ ونتابعك، مشيعاً بالاستغراب حتى تكل عيوننا من النظر. ونحن مجتمع الارتياب الان. والصرخة تستدرجنا الى الشاطىء، والمرأة غريبة هي الاخرى، أو ساكنة جديدة، منذ سنوات مثلاً، في

شارع فرعي ، كانت كسيرة ومهتاجة وعباءتها مشدودة على جسدها كمن يخشىٰ عليها من الفرار في حمأة هذه المناسبة ، وبضعة صيادين يلتفون حول الجثة ، شارحين كيف انقذوها عندما كانت قواربهم تطوف في النهر عند الفجر ، كعادتهم ، بحثاً عن الصيد الثمين في الساعات المبكرة من نهارات الصيف . الطائر معلق برقبته ووجهه محتقن ، وجسده الفارغ ينتفخ . . . السباح الغريق . اغتيل الجمال في لحظة دنسة . . . بين الشهوة والحب ، الغريزة والعشق ، الانانية والوجد تتسع المساحة وتضيق ، تتصارع فيها الذوات ، حيوانات وبشراً ، والانسان يحمل نصال انتحاره في جسده وعقله ولسانه ، يطرحها معروضة للاستخدام ، يطوف بها ، يعلن عنها ، والالسن تمتد كالأيادي ، والحراب مشرعة كريح لاهبة تقطع الوجوه في حمأة القيظ الضاغطة ، وأنا بينهم بين الماء والجثة وتفرعات الزعفران على «الكورنيش» نتأمل ونراجع ونختنق ، والاذهان تكتظ بالافكار . . والاسرار تتداخل ضاغطة في الاذهان ، تنعكس متجهمة غامضة على الوجوه ، مقفهرة تخنقها تحت الجلود خشية أن تفر . . . فالمجتمعون ليسوا بعيدين عن أهلنا في «الزعفران» . .

قالت :

ـ ليس صعباً أن يغرق ، مادام يفسد عليّ حياتي ، ويضايق زيدان ،

لكني بكيت كثيراً في ذلك اليوم، صدقّني.

اخرجت منديلها ومسحت عينيها بهدوء، ثمة احمرار يشي بأنها ذرفت دمعة على روح عاشق مرحوم.

ورأيت أن أحيد عن الموضوع،

ـ وماذا بشأن الحامد؟

ـ كان كثير التردد على منزلي!

ـ لا اعرف حتى مكان منزلك.

ـ غر، والا كيف تقضي وقتك؟ في القراءة والرسم والمراسلات، وتريد أن يخاصمك زيدان كلياً؟

كدت أسخر من نفسي، فأنا الغر المحايد يتابعني زيدان بهذه الهمة، ولربما تقودني خطوة أخرى في الاشتباك معه الى التورط الذي لامخرج منه. كدت أسخر، وها أنذا اسخر فعلاً مما أجد نفسي فيه، ميداناً اعترف فيه للانذال بالقدرة الفذة والكفاءة وادارة الصراع لصالح كفتهم الشريرة. ما أشد وطأة الاعتراف عندما تدرك انك تعجز عن الاستهانة بنذالة الرذيل. وكلما تمضي ثقاب في جرّي اليها عبر الحديث أو العلاقة الى هذا الميدان، أراني اتورط اكثر فأكثر. الكلام اذن كالفعل كلاهما يقوداني الى التورط، فثمة قضية تقود الى أخرى، سلسلة متشابكة ومتزايدة تعقيداً واضطراباً. وكلما ادعي

السعي الى الخلاص من هذه الحلقات، اجدني طرفاً في رواية يحبكها غيري. المخرج من هـذا الاضطراب لا يكـون الا بـالصمت، الصمت قولاً، الصمت فعلاً.

كان مجرد سؤالي عن منزلها يعني اهتمامي بها، وها هي تتلقف السؤال، مبتهجة مستبشرة، ووجهها يفيض ببريق الانتعاش الذي انسجم مع ثوبها الابيض المنقط بازهار ملونة، خضر وحمر وصفر. .

ـ منزلي ليس بعيداً عن البيت (المسكون)!

ـ ذلك الذي يقع في الطرف الجنوبي من الفرع الأول الذي يتقاطع مع الزعفران، امامه. . .

ـ نعم. . شجرتا نبق. .

ـ الا تخافين؟

ـ ممن؟

ـ من البيت (المسكون)؟

ـ مثلي لايخاف. .

ـ ولماذا لايزورك الحامد الان؟

ـ كان طرياً متفتحاً على الحياة قبل ان يمنىٰ بصدمة حادة. .

ـ منذ متى؟

ـ منذ قرابة ثماني سنوات.

قالتها غير مكترثة، لكني احزر ذلك، اذ بدا الحامد فجأة محترزاً كئيباً، قانطاً تداخله الريبة في الآخرين. وكمن يبتغي تغذية حب الاستطلاع لديّ، مضت تفضي اليّ بما ابحث عنه:

من ينفق المال يثير حساسية الاخرين، وغيرتهم، لكنه اثار ايضاً خشية زيدان، لئلا يبتاعني بماله.

ادركت من نظرتي اني آخر من يصدق هذا التسبيب، فنحن نتحدث عن صدمة شديدة ولّدت الارتياب والقنوط عند شخص مرح هو لطفي الحامد. . الخشية لاتأتي بمثل هذه الصدمة، قلت بلا مبالاة، عارفاً أنني أثير غريزة التحدي عند امرأة عنودة كثقاب. وتحقق ما أردت.

ـ لولا معرفة زيدان بامتلاك الحامد لسر البيت المسكون الذي يرتاده زيدان احياناً لما اضطر الى جعله مشروعاً دائماً للابتزاز.

ـ هل افضى لك الحامد بالسر؟

ـ هذه نقطة الضعف في شخصه، فعلاقتي به دفعت الى الاعتقاد بأني افرط بزيدان. . وكان أن أشركني في السر، وأنا أعجز عن التستر عليه أمام زيدان.

ـ كيف كان سر البيت المسكون اذن؟

ـ كان الحامد خارجاً من منزلي عندما شاهد زيدان يدلف الى البيت

المسكون بحذر. يقول انه بقي الليلة بكاملها يترصد ما يحصل هناك، مذعوراً، لكنه شغوف بما تلاحق سراً مثيراً.

ـ لا اتذكر واجهة المنزل، ولكن زيدان لايتخلىٰ عن حذره بيسر. .

ـ بوابة الحديقة تفضي الى ممشىٰ واسع على يساره الجدار المشترك مع بيت المجنونة، وعلى يمينه حديقة واسعة يحدها الآس. ومثل هذا الممشىٰ يتيح للحامد الاختباء لحين اطمئنان زيدان. .

ـ وكيف رآه في داخل المنزل؟

ـ لم يكن صعباً عليه أن يراه متنقلاً ما دام المنزل يتشكل من طابق واحد تلتف حوله شبابيك واسعة ذات منافذ علىٰ الحديقة.

ـ اشتقت الى السر، على الرغم من كراهيتي للمكائد. .

ـ السر يعني التورط، وأنا احذرك.

ـ اعوذ بالله، وكفاني بالله وكيلا. .

ألفت هذا السر، كما يبدو، ولهذا طفقت تتحدث فيه كأنه بديهية:

ليس مهماً ما يقوم به من تنظيفات هنا وهناك، فهو معتاد على المكان. لكنه بعد أن امضىٰ وقتاً في غرفة الاستقبال تلبسته حالة أخرى، فكمن يحتفي برفقة خاصة كان يضمك ويتناجىٰ ويشكو ويتغازل. . كان ملتاعاً، ملؤه

الشوق.

لاحظت دهشتي. فأنا آخر من يستطيع تصور زيدان رقيقاً وعذباً.

- لا، صدقني، الحامد نفسه بدا مأخوذاً، عيناه لاتستقران في مكان، وبقي مرتبكاً لأيام. هل يعقل الاّ يرى ما يراه زيدان؟

- وذكرت الامر لزيدان؟

- يقيناً. . ارتبك في البدء، ثم
تمالك نفسه ضاحكاً ،لدي اسراري ياثقاب .

-كدت أجزم انه لن يغفر للحامد تدخله هذا في شؤونه .

وذات مساء أدركت لعبة القط والفأر ، بين زيدان ولطفي الحامد . لو كانت النقود والعلاقات تشتري زيدان لانتهىٰ ذلك البريق في شخصه الذي أعده خاصاً به . أنا أبحث عن (الخاص) في الرجال ، ياوهاب . لكنها القياسات المختلفة التي تجعل الصراع قائماً بين الامزجة والاحداث . فيما يراه الحامد ممكناً يبدو مستحيلاً لزيدان . كان الحامد مرحاً ذلك المساء ، فهو مطمئن الى ان خطوته بيننا ستستمر لفترة ليست قصيرة ، وعلى الرغم من الارتياب الذي يرتسم على وجهه كلما توجهت انظاره الى زيدان ، الا انها نظرات شخص يعجز عن نسيان مارآه في تلك الليلة ، هكذا تصورت .

لم يكن بعيداً عني ، خطوتين أو ثلاثاً فقط ، ونحن نحتفي جميعاً في حديقة منزلي ، في أمسية من اماسي نهاية الربيع ، وسمعته يهمس : أتود أن أريك بعض الصور ؟

استبشر لطفي ، وبان السرور على ملامحه ، فهو يهوى العلاقات الطيبة الوديعة . وقاده زيدان الى طرف من الحديقة ، وكان يريه بعض الصور ، اكاد أتصور ماكان يريه ، فأنا رأيتها قبل ساعات . صورة لنبال عشيقة الحامد . . المنتحرة ، وأخرى بصحبته ، وأخرى معه ايضاً . كنت المحه من طرف عيني ، ارتجف الحامد ، وبان عليه التوتر ، وخمّنت ماكان يجري ، فأنا الان أقدر على قراءة زيدان كتاباً مفتوحاً امامي : ابتزه اولاً ، ثم حذره بأنه يمتلك مايدلل على ان (نبال) لم تمت منتحرة ، بل قتيلة على يديه في لحظة سكر وتهتك . . وماذا يقدر الحامد أن يفعل ؟ أربكته الصور ، وأخذ يخشى مايدعي زيدان امتلاكه من معلومات . كان ذلك الجسد الممتلىء يهتز قلقاً ورعباً . المشكلة التي تواجه الزعفرانيين هي انهم يتساقطون امام التهديد . . أما الواقع الذي أعرفه فهو أن زيدان يختار ضحاياه من بين اولئك الذين جمعوا معلومات مهوّلة عن شروره . يقول لي بارتياح بالغ :

ـ هؤلاء خسروا معي نصف الجولة ، ولا احتاج الى غير التلويح بالتهديد لتسقيطهم .

والحامد أحد هؤلاء . هكذا رأيته ، مفجوعاً بائساً ، نسيَ انه يمتلك السر الذي بمقدوره أيضاً هدم زيدان .

ـ الاسرار مكائد . .

هكذا وجدت نفسي اطلق تعليقاً بائساً أمام مجرى الفضائح الذي تتكامل في داخله شخصية ثقاب .

ـ وشِباكُ موتٍ ياصديقي . .

قالت ذلك ، وهي تلوي شفتها السفلىٰ ، وتمسح عليها بلسانها بمغزى خاص ، يخصها وحدها ، يجمع بين الغموض والتهتك . لكنها أقوى مني وأكثر ثقة بنفسها .

كانت عيناي تتجهان الى لوحتي ، المسبحة المنفرطةوالاصابع ، ترى ماذا لو أضفت لوحة ثالثة تحتوي البعد الأخر لزيدان ؟ وثقاب هي الاخرى تثير عندي ميلاً شديداً لتخيل طاقتها الاخرى التي تخلق عندها هذا المزيج الغريب . غالباً ماوجدت حياتها تجتمع في شفتها السفلى هذه . شهوانية وتهتك وبراعة وغموض ، وحمرة عقيق تذكرني بثمار العوسج ، شائكة وممتعة .

وجدت نفسي منقاداً الى شباكها . كنت أغالب شوقي الى

معرفة سر البيت المسكون ، فأنا مهووس بكل ماهو غامض وغريب ، وتغمرني الرؤيا ليل نهار ، ويختلط المنظور عندي بالعجيب والمخفي ، وكم من مرة بدت لي ثقاب نفسها في وجوه جنيات ملتاعات يبحثن عني ، وأنا أغور واختفي ، كنت أصرخ في منتصف شارع الزعفران في تلك الظهيرة الحارة ، وقير الشارع يكوي باطن قدمي ، ووجوههن شديدة البياض متناظرة مدورة جميلة لولا تلك العيون الحمر والشفاه القرمزية ، وذلك الشعر الاحمر المنفوش . كنت فزعاً لولا ذلك المطر المدرار الذي غسلني فجأة بينما ذابت تلك الوجوه في لحظات ، لأفيق وأحساس بالتطهر يملأني . كنت كلما التقي ثقاباً لأيام متتالية ، ونحن نتحدث عن البيت المسكون ، أجدني مسكوناً برؤى أراها تمهيداً لمشكلات أنجو منها بقدرة من الله تعالى . .

لم أكن سباحاً كذلك الغريق ، لكنه يوم عاصف حملني لسبب أولآخر ، لا أستطيع تذكره ، الى ذلك النهر الحبيب ، وكنت أسبح فيه ساعياً نحو جرفه الاخر ، أخبط بقوة من يريد النجاة . والنجاة عصية ، والماء الغامر يدفعني الى منطقة تبعد عن الجرف . العمق بضعة امتار ، والماء يتدفق عنيفاً في تلك المنطقة ، حيث يشكل الجرف الصخري وضعاً عمودياً حاداً . وصوت الماء المتدفق الجاري يصفع رأسي ، ويطن في أذني ، شديداً كمن يهدم تلك الطاقة التي

تصـر في داخلي عـلى النجاة ، وخلفي بعض من قـومي ، ونحن نتنـاشداالجـرف ، حيث أبصر أنـاساً صـامتين ، يلفهم السكـون ومساحيهم مغروزة في الارض كمن يريد أن يمضي في الحراثة لولا لحظة سكون ، هي مزيج من الترقب والوجل ، مقتطعة من زمن آخر متحرك ، مذهولين ، عيونهم فارغة ، تنظر في اللاشيء ، وأنا ورهطي نبلغ الجرف بعد لأي ، لكننا فزنا به اخيراً وتسلقنا الجدار الى ناصية الطريق ، والعيون تنظر في فراغ ، ونحن نستغرب جمود الرهط ، لولا انّـا حثثنا الخـطىٰ ، مبتعدين عنهم ، غـافرين لهم لامبالاتهم ازاء مانمر به من محنة وعندما نطقت شفاهنا بالرحمـة ، تحركت مساحيهم ثانية ، وامتلأت عيونهم نوراً ، وعادوا يحفرون في تلك الساقية ، وعيونهم مصوبة الى الشاطىء . كانت تنظر اليّ . كتلك العيون المشدودة الى الشاطىء ، وأنا تحدوني الرغبة في معرفة سر البيت المسكون ، أبقىٰ مغالباً ذهني وجسدي ، منصتاً اليها ، مقـاطعاً تلك الـرؤى التي تستعيدهـا ذاكرتي شـريطاً يبحث عن تفسير ، ينثال متلاحقاً كأنه يتسـابق مع حب الاستـطلاع المعلن الذي يشدني الى ثقاب في مثل هذه الجلسات . الانثيالات تتلاحق كلما داهمني السؤال حاداً قاطعاً . ترى هل تقودني هذه الغريزة الى التورط ؟

كان ذلك النحيف الاسمر ، ذو الوجه المعروق ، والعينين السوداوين الواسعتين يلاحقني باستمرار ، استغربت ذلك مراراً ، ووجدته في معرض رسومي الاخير ، يترصدني بنظرات حاقدة تعيسة ، كان بوده ان يشعرني بوجوده . هذه بصمات زيدان . فهو لايريد الان أكثر من إنهاكي . وقد لاتكون قصص ثقاب مسلية أو طرية هي الأخرى ، لكنها تقودني ايضاً الى الارتباك والاضطراب على خلاف مايدلي به الامين ولطفي الحامد . اقترب مني الاسمر النحيف ، كانت انفاسه كريهة ، اثارت اشمئزازي . قال ، رسومك تثير الضجر . هذا من اقاويل زيدان . اخبرني مرة انه يهوىٰ الامعان في الطعن من الزاوية التي يراها مطمئنة وأمينة . فأنا أبعد ما أكون عن هذا الموضوع . لكنها تهمة وكفىٰ . وشارع الزعفران يهوى الاستقرار ، والتكتم على الفضائح . قال الاسمر الطويل ، وانفه يكاد يلامس خدي ، أتريد أن اعلن ذلك على الناس . استغربت منه ذلك . قلت له ، أخبر زيدان اني لا أعبأ بكلامه الفج . لاعلاقة لزيدان بالامر . لا . . اعرف ياولدي ماتبتغيه ، واقترح نشره في الصحف . تقبلها على مضض ، وراح يتحدث مع أخرين ، بدوا غرباء على الوسط الفني أو المعني بالرسم . هذه قوة زيدان الضاغطة ، كما يبدو . تركتهم غير عابىء ولا مكترث .

واعادتني عيون ثقاب اليها ثانية ، وعبارة البيت المسكون تكاد تصبح نغماً على لسانها ، تستعيدها وتهمسها ، وتدفعها اليّ بلسانها وشفتيها المنفرجتين . لكنها الصرخة التي تبعدني عن عينيها ، فثمة فروق بين النظرتين ، بين نظرتها ونظرة مثال ، تمتلك سطوة الاستذكار والاسترجاع ، كالتشابه والتناغم بين صوتين أو نظرتين أو فكرتين ، استعدتها فجأة ، فلم اكن بعيداً عن ذلك البيت عندما سمعتها ، باكية جزوعة ، تركض وكلب اسود ضخم هائج ينط من بين المنزلين ، نحوها ، ومثال تركض مذعورة ، وثوبها الازرق الفاقع يحيط بجسدها ضيقاً يمنع عنها الحركة . فتترك حذاءيها خلفها . وتحتمي بشجرة وتصرخ طالبة النجدة ، والكلب مسعوراً ينهشها ، يمزق ثوبها من ناحية ساقيها ، وهي تخر الى الارض ، وأنا اركض نحوها ، والكلب ينهشها ، وصراخها يصبح انيناً موجعاً ، وعذاباً فزعاً ، وأنا اقترب غير عارف بالذي اقدر عليه في مواجهة ذلك الكلب الاسود الهائج . وانتزعت غصناً من شجرة واتجهت نحوه ، لم يكن يبتغي غيرها ، وكأنه أعد لمهاجمتها وحدها ، واجهني بنظرات شزرة حادة ، أرعبتني ، لكني قررت المجازفة ،فمثال مطروحة على الارض ،والدماء تنزف من ساقيها ، وثوبها الممزق يكشفُ عن صدرها واغلب جسدها ، كان ذلك الجسد الحبيب الجميل طعماً لكلب مسعور ، صرخت به ،

واندفعت نحوه وكأني امتلك قوة خارقة ، وظهرت وجوه مرتابة من الابواب والشبابيك القريبة . دون ان يتقدم أحد نحوي . خرس الكلب ، وكأنه مدرب لهذا الغرض أيضاً . لم يكن همي أن أتابعه ، هرب وكفى . وأنا منشغل بها ، لكنها تهمس همساً متقطعاً اليّ ، أموت ياوهـاب . أموت يـاوهاب . ليست مصـادفة يـاوهاب . أشارت الى حقيبتها اليدوية الصغيرة . فتحتها لها ، واخرجت منها ورقة . شكوى ضد زيدان . اذن عرف انها تسعى ضده في موضوع الاغتصاب ! ليس مصادفة ، وأنا اقول كذلك أيضاً ، ولكن اين وجـه اليقين ؟ غيـري يمتلك عدة الشيـاطين . ومـلائكة الـرحمة قليلون . وكانت تلفظ أنفاسها ، روحاً ذهبية ، وجسداً مترفاً تنهشه الكلاب قبالة البيت المسكون . ونظرت مرتـاباً حـولي . المنزلان أمامي يلفهما الصمت . وثمة طائر غاق ميت عنـد جذع شجـرة الغَرَب التي تتوسطهما . ولم يتقدم أحد لمساعدتي . كان الوقت قبيل الظهر بقليل في يوم خريفي ، وانغلقت الشبابيك ثانية بعدما ارتدت الرؤوس المرتابة ، عجائز وشيوخ لم يجدوا بـداً من البقاء في تلك المنازل الكالحة على امتداد شارع البيت المسكون ، فالشباب هجر المنـطقة كـما يبدو والأطفـال امتنعوا عن المـرور من هناك بعـدما أصبحت قصة المنزلين الرهاب الذي لابد منه لتخويفهم تتناقلها الامهات والفتيات والرجال والشباب ، يضيفون اليهـا ويعدلـون

فيها . فمن يريد الموت مصعوقاً ؟ ومن يبتغي الجنون ؟ وهل تود الاصابة بالصرع ، الرؤوس التي ادارتها الارواح ، ووجوهها تستند الى القفا كثيرة ، وكذلك الالسن الممدودة دائماً والقلوب التي نطت خارج الصدور . لابد من الحذر ، والستر يقتضي الخلاص من ورطة المنزلين . ونحن في شارع الزعفران نكره التورط . .

هذه اشارة البدء ، نخشى **التورط ، وكأني** اقرأها لافتة معلقة عند مداخل الشارع ، وعند مدارسه وبيوت ماله ومنازله الكبيرة ، لكنها لاتحتاج الى تدوين ، فشارعنا يتقن الهمس ، سمعوا القصة همساً ، وحوّلها الهمس سراً ، اتخيله منقولاً على السنة العجائز يهددن به الرضع ، قبل أن تقوى السنتهم على المحاججة ، وتستعين به الزوجات في كبح رغبات الازواج ، ويلوح به هؤلاء كلماارادوا التحذير من شيء ما **لايرونهُ متلائماً** مع اهوائهم . حتى انا ، الشخص الوديع الهادىء البعيد عن هذه التفاصيل ، عددتُ القصة سراً ، ولو سألتني الان عنه لخلطت بين البداية والنهاية ، فالخلطاء لم يتركوا لنا شيئاً واضحاً ، وثقاب توقد نارها بهدوء ، تطبخ ماتريد بشهية تتناسب مع شهوتها المتفجرة المتدفقة من هذا الجسد العرم . كنت اشتهيه مرات ، فهي **لاتكشف لي** عذوبة الاجساد الرقيقة ، بل تثير عندي شبقاً حاداً ، اشفيه بطرحها أرضاً وهي تختض كلما رأتني عنيفاً ، وتبحث عني شفتها السفلى ،تلوذ

بصدري تمسه، بينما يهتز جسدها كله، ساقاهايعتصرانني، واصابعها تلسعني حارة وحادة، تذكرني دائماً بلسعات اغصان النبق وأوراق الصفصاف تذروها الرياح وهي تصفع وجهي ورقبتي، في دوامات الرياح الربيعية والخريفية، وكأنها مجموعة أياد، لثقاب، تقتص بطريقتها مني على فعلة ما، قد تكون التورط.. تورطي معها.

قالت لي : انها ماكرة ، واني مأمون الجانب . وكنت اسخر من هذا المكر ، (لايحيق المكر السيء الآ باهله) . لكني اعترف لها بالقدرة على الاذى ، دفاعاً عن عالم تسعى الى تكوينه ، يعتمد على النذالة .

ـ لاتخشى التورط ، فأنت ياوهاب مهمل بطبعك وطبيعتك ،غير مبالٍ . . حتى ازاء من يحملن اليك العواطف النبيلة الحارة . .

ـ اذن لماذا تجيئينني ؟

ـ لأنك كذلك أيضاً .

كنت مرتاباً . لكنها هزت رأسها مؤكدة ، ماسحة على شفتها السفلى بلسانها ، كمن يذكرني دائماً ان زمنها واحد ، للعمل وللشهوة .

ـ أتريد تذكيرك بحادثة طريفة عن معنى اللامبالاة القائمة في

تكوينك العاطفي ؟

لم تنتظر جواباً مني ، بل طفقت تحكي حـادثاً لم يغب عن ذهني ، لكني استغربت انهما كها فيه :

ـ جاءتك رسالة مرة تحكي فيها كاتبة أو فنانة قصتها معك . اعتقد انها كاتبة ، فلغتها انسابت عذبة مؤثرة ، جعلتني أبكي ذلك اليوم . نعم ، أنا ايضاً لي عواطفي الحبيسة . لم تكن رسالة غرام ، بل اعترافات عند الموت ، لامرأة رقيقة أدركها المرض الخبيث . حفظت رسـالتها عن ظهـر قلب ، فهي سلوى لي في حيـاتي المحتدمـة ، استطيع أن أكررهـا عـلى مسامعك ثانية ، وثالثة ، يامن اقتربت اليه عبر الرسائل . .

لم يداخلني الشك في انها مزمعة على القائها على اسماعي ، وأنا الان كالاسفنجة امتص رغبات الاخرين وهمومهم وعواطفهم واسقاطاتهم :

ـ عندما تصبح دقات قلبي ونبضاته نداءاً فاتـراً لاصطيـاد مـايتبقى لي من لحظات معـدودات في هذه الحيـاة ، ترتسم أمامي صورة من أحب ، وكنت برغـم هذه المسافة البعيـدة صورتي الأثيرة التي طاردتني وشغلت مخيلتي ، تلسعني بسوط لائم ، ترى هل يحق لي أن أتكتم ازاء تلك العاطفة النبيلة التي منحهـا الرب تعـالى لمخلوقاتـه ؟ أيحق للمرء في مثـل هـذه

اللحظات ، مغادراً هذه الدنيا أن يحمل أسـراره معه ، الا يمكن أن تتعذب روحه بعدما تخلى عن ايداع منحة الرب وهبته لمستحقيها ، مهما كانت نتيجة هذا الاعتراف ؟ روحي تنساب مغادرة بهدوء ، متجلية تبصرك خلال المسافـات قريبـاً حتى فاضت عيناي بـالدمـوع مرات ومـرات ، هل صحيـح أن الشـوق يتفجـر في لحـظات كهـذه ؟ كنت ألـوم نفسي لأني تقصدت التهرب من الكتـابة اليـك ، بينما تـردني رسائلك جافة ، كعادتك ، ملاحظات وهموم حياتية متكررة ، وأنـا طريحة الفراش أعد لحظاتي عداً ، مطمئنة برغم ذلك الى أني سألاقي ربي العزيز هادئة البال .

قلت لنفسي ، هل أعذبه برسالة أوضح له فيها مرضي ؟ ألا يمكن أن يهزه هذا الأمر ويربكه أو يعذبه ؟ وخشيت عليك من العذاب ، وخشيت أن تأتي الي لترافقني في أيامي الأخيرة ، ورأيت البعاد خاتمة وصل أثيرة ، اذ تكفيك وتكفيني لحظات الشوق المعذب الأخيرة .

أية مباراة بين العاطفة والعقل ، هل اخبره اني برغم زواجي مازلت منشدة اليه ، ولست مجرد صديقة حميمة كما يعتقد . لكني اتعذب لشوقي اليه ، شوقي الذي يصعب التكتم عليه ، لجوجاً يملأني ، ذهناً وقلباً ومخيلة ورؤية ؛ ليست نزوة عابرة ، بل عواطف

تتكامل في دمائي ، وتنمو مزهرة باستمرار ، دون أن أشك لحظة بقداستها ، فأنا الزوجة الوفية أيضاً التي لاتخلط بين عذرية الحب والشهوة . كابدت في ظله ، أسيرة اليك ، مشدودة ، اتابعك واستمع اليك ، واناديك واقدم لزيارتك ، واترك طفلتي عندك لساعات ، كل ذلك عسىٰ أن أمتلك صورة العشق الابدي ، لأعيش معها نشوتي الخاصة المتعبدة الملامة المهمومة . آه من عذاب االشوق ما احلاه ، أكاد أحسد نفسي على عذابي هذا . ليس ألماً ، فمن يخلط بين الاثنين لايفقه من الشوق شيئاً .

أكابد كلما شعرت انك تظنني مجرد صديقة ، أيريدني أن أزعق وأصيح . حتى طفلتي تشعر ان شوقي مبالغ فيه ، وزوجي يدركه بهدوء وجلد ، عارفاً اني لا أقوى على الهجران والصد ، فقلبي يطفح ، والعذاب سلواي ، وأنا الشقية السعيدة ، ترى هل سرّهم أن يروك متجاهلاً هذا الشوق ؟ واليوم يضغط الموت عليّ ولا مفر لي ، واذ لاملاذ فيه يسعدني الاعتراف ، بل أرى التكتم خطيئة في لحظات الانفراج التي يأتي بها الموت . وها انذا أعلن حبي وشوقي ، سعيدة ، تكاد الورقة تبتل بدموعي ، فأنا فرحة وحزينة ، مستأنسة ومعذبة ، أي اجتماع للاضداد في مثل هذه اللحظات . تراك الان تبتهل الى الله أن يحيطني برعايته ولطفه وحبه ، تماماً كما اني ابتهل الان الى الرب أن يسعدك مبتسماً دائماً ،

فأنا أرى عن بعد أية شراك تتقصدك ، وأية أعباء ، انما أرى الفرج يبتسم لك هو الأخر ، فقلبك معين أمل وحب ، طالما ألوذ به ملاذاً . . آه اية راحة تغمرني ، وأنا أزيح عن ذهني هماً . .
وداعاً .

(هدى)

لا أكاد أصدق ذلك الوقار الجميل الذي تلبسته «ثقاب» الان ، مستعيرة شخصية (هدى) ، لكن الأخيرة كيان من الاحاسيس والعواطف والاشواق الملهوفة متجسدة كلها في قوامها الرشيق الغض ، وتوقدها الذهني وغناها المعرفي والاخلاقي ، كل متكامل تنساب مواصفاته في حديثها ، كما في هيبتها ومشيتها . هكذا كنت أرى ثغرها الباسم وعينيها الزرقاوين وانفها الدقيق ، هدى كلها ، بجاذبينها واغرائها اللذيذ وحرارة حضورها . نعم ، أنا صديقها الحميم ، أكبت عواطفي الاخرى ، خشية أن أخسرها ، فالافصاح يقودني الى زعزعة وجودها الذي تطمئن اليه ، حيث رباب طفلتها الجميلة وزوجها الجامعي اللامع . وماذا لو وجدتني مسرفاً في العواطف ومبالغاً على حساب الصداقة ؟ خير الناس من ضحىٰ بنفسه من أجل رفقة وصداقة وصحبة نبيلة . لم أكن كما أنا عليه اليوم ، لكنما العواطف والميول الاساسية طباع .

عندما تسرف هدى في بث الاشواق ادعي الوقار ، ورباب تعلن غيرتها صريحة في مثل هذه المناسبات . أتغارين من عمو وهاب ؟ كانت تقبلها ضاحكة . وانا ادعي الاهمال واللامبالاة ، هذه هي المشقة التي عليّ تحملها لتصبح مكابدة الشوق قائمة كما هو أمرها الآن ، لاقدرة لي على الغائها أو تخفيفها . انها امتحان القلب لنفسه ، بين الشهوة والقداسة . واخترنا القداسة . هكذا قالت ، عندما تجاوزت المحنة واكتفى الاطباء ببتر العضو الذي يكمن فيه المرض الخبيث . قالت ، بعدئذ ، لكأني اشتاق اليك شوق المرأة الى الرجل ؟ وهل تظنين اني قديس ؟ عصرت يدي بكفيها الصغيرتين ، وقبلتني ، انت تدرك اذن اننا احطنا نفسينا بسور من القداسة ! نعم ، هل تشكين في ذلك ؟ مضطرين ؟ نعم ولا ، فالواقع يفرض نمطاً من العلاقة الخاصة . اذن ، لتبقى الجذوة مشتعلة ملتهبة مطهرة لامدنسة . كانت تضغط على يدي ، فهي تدرك كم يختلف مسارنا عن مسار غيرنا في عالم صار يكتظ بالدنس .

لكنها تلبست هذا الوقار . وكأنها هيَ الأخرى تبتغي الطهر والقداسة . قالت مثال انها كانت تضحك فاجرة ، وهي وكواثر يتعاونان على الحد من مقاومتها في ذلك اليوم المفجع : كانت تمسك بذراعي وساقي ، تعينها كواثر من الجانب

الاخر ، بعدما استدرجاني لزيارتها في منزلها . وتحـول ذلك الجسد السمين ذو العينين الجاحظتين غـولاً مفترسـاً ، وأنا أجاهد للخلاص ، بين ضحكاتهما المتهتكة ، وذلك الغـول يزداد وحشية ورغبة ، لاصحو بعد حين من غيبوبة ، مهملة تعيسة . . .

لم أقل لثقاب انها تصطادني في زاوية أخرى ليست ، زاوية الشهوة والاثارة والاندماج الظاهري والتلصص ، انها الان تتقمص حيلة القاص ومخرج افلام الاكتشاف . ولهـذا اطأ عبرها عالماً قريباً مني وبعيداً عن اهتمامي ، مألوفاً وغريباً ، ميسوراً وشائكاً ، فهي تفتح اشرعتها للريح لتنفرد بك عند استقرار الموج خاضعاً لسلطانها ، وهكذا يستقر بها المطاف في منزلي لأبدو غريباً فيه ، بينما راحت تبـادرني باسئلة أخـرى تستهدف عوالم السكون والتأمل والاسترجاع :

ـ الاتستحوذ تجربة زيدان الغامضة على اهتمامك ؟ أعني سر البيت المسكون ؟

ـ الشخوص الاعتياديون لايثيرون حب الاستطلاع .

ضحكت بتهتك فريد

ـ ومـاذا تريـده أن يكون ؟ فيلسـوفاً ؟ انـه الوجـه الأخـر للمجتمع السري كما يحلو لك تسمية المجتمعات غير المعلنة .

لكنه ايضاً مجموعة احاجٍ وألغار . .

ـ لكني افترضه كياناً جامداً نذلاً . .

ـ أخشىٰ ان تجد بعض الاعذار لنذالاته عندما تحيط بتكوينه . .

لكنك مازلت تحذره وتخشاه ، وهكذا تأنس الاكتفاء بادانته . .

مهما حاولت تقليل شأن ثقاب أجد نفسي معجباً بقدرتها على التقاط المفردات المعبرة ، وحتى المصطلحات ، فهي ليست قارئة عنيدة حسب ، انها ذهن متوقد غرق في مستودعات الانسانية . ولهذا تعجبني وتثير ازدرائي في آن واحد ، انها ضالتي في المسرة والضجر ، في الحبور والقنوط . كائن لايتكرر ، تألفه شيطاناً أو جنية ، مضطراً الى الاعتراف له بقدراته .

هاهي تغير ملامحها وجلستها وتعبيراتها في لحظة خاصة ، طرية مقتطعة من عالمها المزري ، لتسرقني رغماً عني من كل عفتي وتطهري ، لتغرقني في تجربتها الحسية الخاصة ، التجربة التي تنمو باضافات هنا وهناك ، تؤكد لي اختبارها للحياة ، وسعيها للهيمنة عليها ، والسيادة فيها ، حتى عندما تكون الشهوة موضوعها .

وينسدل الستار على اللحظة المقتطعة هذه ، لتظهر في أخرى تتكثف فيها اجواء «الخلطاء» ، تبدو فيها شخصية أخرى ، بمزاج

لاشخصي ، هو ابن اللحظة والمصلحة الانانية ، مصلحتها أولاً .
وهي لاتماري في الافصاح ، فالافصاح هو سبيلها نحو التكسب ،
ومد الجسور . هكذا يراها زيدان أيضاً ، الوسيلة والطاغوت . انها
اسراره وأيام زعفرانه ، الذكرى والذاكرة ، المرآة والماضي ، يرى
نفسه فيها ، ويستجمع جهده من خلالها . بينما يستكمل عبرها
صف قطع تلك المرايا المحطمة من ماضيه وذاكرته . .

لم تدعني أذهب بعيداً ، بل أعادتني ثانية الى دائرتها :

ـ من الملام ؟ الحامد أم زيدان ؟ اين وجه النذالة : الاول
دفعه حب الاستطلاع والتلصص والثاني دفعه الثأر لنفسه ؟

ـ الاجدر أن تعيدي صياغة السؤال ، من يهدف التشهير
بالأخر ؟ الحامد أسرك وحدك ، وزيدان أوجد شبكته للايقاع
بالحامد . .

ـ من يذع السر لواحد يُذعْهُ لاثنين . . كما ان (زيدان)
احترافي التكوين منذ طفولته وهو احتراف تأكد في شخصيته
بموجب الظروف التي واجهته .

قاطعتها مستفهماً :

. لاتحدثيني في ما أجهل ، فهو غريب عن المنطقة . .

ـ ليس تماماً ، انه من اهالي زقاق البيت المسكون . .

أكاد اصعق ، فالأمور تتجاوز حدود التصديق . وها انذا

أجد نفسي واقفاً ، انظر اليها جالسة بهدوء ، متوقعة رد فعلي هذا ، وابتسامة ماكرة تتلاعب على شفتيها ، وتحديداً على تلك الشفة السفلى ، علامتها المبرزة . أذن ، خير لي أن أعلن استسلامي وأدخل دائرة الاسرار مضطراً .

ـ لاتستغرب ، قضىٰ زيدانٰ فترة مراهقته وبدأ شبابه هناك ، كانت شذىٰ ، الشقراء الفارعة الجميلة ، كما يصفونها ، صديقته وعزيزته والاثيرة عنده . .

ـ وانت ، كيف تعرفين ذلك ؟

ـ وتدعي أيضاً ايها الماكر انك تجهل علاقته بي ، وجلساته في بيتي . أتراه يخلو من الهموم التي يزيحها عند السكر ، دون أن يكون متوسداً صدر معشوقته . .

كانت تشير بخبث الى صدرها النافر . .

ـ لا استطيع تخيل ذلك ، فأنا اراه جلداً ينقصه الأنا الداخلي . .

استمرت هادئة ، عارفة انها تقودني الى دائرتها :

ـ فلتبق أسير مقتك له ، لكنه جاءني مهموماً مرة ، ناجيته وأثرت شجونه ، وازاح ماعنده ، بكاءً مراً على صدري . قلت له : ماذا دهاك لتتردد على البيت المسكون ؟

ـ أي مسكون هذا الذي يتحدثون عنه ؟ لو سكنته روحي

لبلغت الراحة ، لـو تمكنت أن أركض ليل نهار ، انهش الارض حولي ، لأزيح صورتها عن ذهني ، وهي تطالبني أن التقيها، فسأحيا معها . اي مسكون ؟ انا البيت المسكون ، مسكـون بروحهـا ، شذى الفارعة الشقراء بفمها المرجاني المدور وشعـرها المسترسل كـالنـار يلهبني ويشفيني ، يحـرقني ويـدميني ، علتي وسلواي . . اكتوي وأصرخ واتعذب واتمتع بالعذاب وافترش بعد ذلك واحة الراحة والطمأنينة منسجماً مع ذاتي ومع الأخرين ، هكذا أدوربين محوري العذاب والسلوى . قالوا انها تسممت مع أمها . وبعضهم اتهم الخال ناجي . . لا ادري . . الذي اعرفـه اني بقيت أبكيها لأيام في ذلك المنـزل ، لا استطيـع انتزاع جسـدي بعيداً عنـه ، كالمأخـوذ هائـماً لا احتاج الى مـاء أو زاد ، أطارد شبحـاً يفر من أمامي ، اتخيلها واسمعها ، وأسعى للمسها . هكـذا مرت تلك الايام . ولم انقطع عنه ؛ حتى حاول الناس ايجاره وسكناه ، ففروا منه ، قائلين ان الاصوات الغامضة تطرق اسمـاعهم ، متذرعـة باكية وفرحة مستبشرة . هربوا منه مذعورين . . وتناقل الاخرون الحدث ، وسرت القصة ، بين الناس وغطت خيـوط العنكبوت ذلك البيت . . حتى وجدت نفسي مدفوعاً اليه ثانية ، استعيـده مسكوناً ، لنفسي في الاقل ، وجاءتني نغماتها ، هادئة مستبشرة ، كـأنها تنتظر اللقـاء والـوصـل ، وأنـا استعيـد ذاتي ، اداعبهـا ،

واضحك معها بعد ان فارقني الضحك . . اي مسكون ؟ انا البيت المسكون ،وسكنُها ا في جسدي ورأسي ، ووجـودها يمـلأ البيت حياة تعيدني الى ما أحب واشتهي . . .

كنت أتابعها ،، معجباً بقدرتها الفذة في التقـاط النصوص المؤثرة . فمهما كنت ممعناً في مقته فانني اراه انسانـاً من لحم ودم ، له همومه وعالمه المتشابك . اكاد اعترف انه أكثر تعقيداً مما ظننت ، بل وأكثر تعقيداً مما أنا عليه . ولكن ، لكل منا اعـذاره ، وعـذري أنني هــاو ، أتجنب الاشتبـاك العنيف بالحياة .

ـ أترى ان «زيدان» له همومه ومشكلاته ، وبدايتـه ليست سيئة ، كما تظن .

ـ شيئان لايعجبانني فيه، اساليبه غير الشريفة، وخشيته من سقوط قناعه برغم سوءاته .

ـ قناعاته تخصه ، وتقييمهـا يخص الاخرين ، وخشيتـه من ذيوع أسراره تعني كثرة هـذه الاسرار ، فهـو يـريـد فتـح ملفهـا بارادته . .

ـ كثرة هذه الاسرار ؟!

كنت اتساءل . .

ياثقاب ، لماذا تريدين توريطي بما تحملين من اسرار ؟ لست

مقبلة على الموت كمثال ، لكنها راحتك النفسية تتحقق عندما تأتمنين شخصاً ما ، مضطراً ، ليصبح بعضاً من اجوائك . كانت تطلق ضحكتها الفاجرة ، وتنفث دخان سيكارتها بتلذذ مقصود تصحبه نظرة جريئة مهيمنة ، تلتهم المرء، على خلاف عيني سمر ، حيث تذهب النظرة الى القلب ، يحثها حاجباها السوداوان الى ذات الحبيب . .

عينا سمر تطوفان بي وتحملاني بعيداً عن كربي وأزمتي . كنت ارتدي دشداشة بيضاء ، اطوف بها بينهم ، بعض يرجو مني البقاء ، والاخر يطلب النصيحة ، ونساء يأملن الخير ويتوجهن بالدعاء . واصوات مختلفة ، كلها تتحول الى ابتهالات تتكرر اصداؤها في ذلك الفضاء الواسع ، محاطاً بالورود والنباتات المتسلقة الخضر ، وثمة من يتلكأ في الاستجابة أو في الاستقبال ، وكنت أنظر في العيون ، وتذكرت أمي ، كان لابد من أن أغادر . هل ستبقى بيننا ؟ يلزمني أن أعود ثانية . فأنا قادم بهذه الدشداشة البيضاء ، وعندما أعود ينبغي لي ارتداء ما هو رسمي لمثل هذه المناسبة . وعينا سمر تطوفان بي تنقلانني الى أمي ، وثمة أمال وهموم ، وأنا أدرك ان عودتي ليست ميسورة بعد .

لكن «ثقاباً» تنزعج عندما تراني شارد الذهن . وعينا سمر تطوفان بي، وتتداخل في دنياي الوقائع بالاعاجيب الصور بالرؤى،

وثمة خصلة تلتف على اذن ثقاب تستفزني، تطويني جاثماً في زاوية ما، في جوف قاتم، وصوت منفر يضاعف من توتري، لم يكن صوتها، وعيناها يبتلعاني، لا . . شاكستهما عينا سمر، مرة ومرتين، وعادا لابتلاعي، جاثماً في جوف قاتم، والصوت المريب يداهمني ثانية، منفراً يخترقني، ليس صوتاً بشرياً، قد يكون صوت أحد الحيوانات ؟ حاولت أن اتذكر . . كأنه صوت طير جارح دجنوه فأضاع خصوصيته ، تمتزج فيه الحشرجة بالعواء ، كان يخيفني ، ويخنق انفاسي في ذلك الحيز المظلم . ترى ماذا يراد بي ، من قذف بي الى هذا المكان . صوت غريب ، وانين متقطع يأتي لاحقاً لتلك الحشرجة ـ العواء ، وتموت عندي الرغبات ، بودي لو أوقفت مسعاي في الحياة ، فأنا زاهد . . زاهد فيها ، راغب عنها . أردت ان اتوسد الارض ، واخلد اليها ، وينتهي أمري . لكنها تقلبت ، هذه العاهرالعجيبة ، تلسعني ، حارة مرة ، وباردة منكرة مرة أخرى ، وثمة ديدان تشغلها وتغيب عنها ، تأنسها وتزدريها ، وبودي لو تقيأت داخلي و روحي ، وبودي . . لكن الرغبة تموت ، ويعتريني حس أخر ، غامض ومحايد ، بقيت معرضاً عن كل شيء ، لكني لم أكن أنوي شيئاً ، ولابد لي في شيء ، وثمة طوفان ما أصبح جزءاً منه ، اتكامل معه ، ازدريه ويزدريني ، لكني بلا قرار . القرف حالة أولى ، تحسستها في زمن

ما ، وعشتها لفترة ، وساطتني الالام ، انما أنا الان لاشيء البتة ، فذهني يفرغ من التفكير ، وجسدي يعـود لغيري ، وأنـا في عالم مـا ،يبدو قـاتمـاً ، اصـواتـه تعـود اليـه ، فـذهني لم يعـد يـألف الاستجابة، وجسدي يعود لغيري، جسدي أبحث عنه، ألمسه، يلدغني، أرفضـه، اتمنىٰ خـلاصي منـه، وبـارقـة تـلمـع في الأفق، تقـودني، اتبعهـا طـائـراً، وثمـة صـوت نـاعم يـأتـيـني. ومـتى تـعـود؟ نـاداني مـن بـعـيـد، ومتى تعود ؟ ناعماً حنيناً تفجر فيه المرارة والحنين واللوعة . آه . . ومتى تعود ؟ وتتفجر عذوبته في قلبي عذاباً ودموعاً . ورأيت أمي . تستقبل الصلاة بمئزر أبيض . وصوته الطفولي العذب يناديني ، متى تعود ؟ وتنز عيناي بعد جفاف . وتطل عينا سمر وتقودانني ، بوابة تنفرج عند هطول الدموع ، وأنا ألمس الشمس .

لولا نعمة الرؤى لعشت حياة قاتمة. قلت لنفسي ، وأنا أرجع الى جسدي ثانية، لأراها واجمة .

هذهٰ امرأةٰ تغار من شرود ذهن الآخرين ، فجدواها تتحقق فقط عندما تشعر بالهيمنـة عليهم أو الاستحواذ عـلى انتباههم في الاقل . جرتني من يدي ، كأنها تطالبني بالصحـو والاستيقاظ ، وعدت الى عالمها الرذيل ثانية ، بأحاسيسه ومشكلاته وتبعاته وهمومه

وطموحاته .

ـ لماذا تظنه غريباً ؟ انه مأخوذ روحياً بالبيت المسكون بعد طفولته في ذلك الزقاق .

ـ لماذا لايستعين بالهاتف في التلصص ؟

ـ زعفراني هو الاخر يكره الاصوات ويميل الى الهمس . .

كانت تسخر مني ، ووجدتني مرتاباً في ماتقول :

ـ صدقني زعفراني روحاً ومخططاته هي قناعه ، أو بدائله للسعي الزعفراني المثابر . .

ـ لكنه فج . .

ـ من الخارج ، نعم ، تعوزه اللباقة الزعفرانية ، ووقارها أيضاً ، لكنه ليس خلواً من «الزعفران» .

اية ملعونة هذه ، هاهي تكيد لتصوراتي عن الشارع كيداً ، وتحيل مواصفاته الى مجموعة نصوص ورموز مكرورة وحتى مستهلكة ، فالزعفران العبق الزكي يكاد يصبح مجموعة تسلكات ، سرية ومعلنة ، واقعية ومتخيلة ، تخص فئة اجتماعية لها سلوكها الحياتي واعتباراتها ، الحقيقية والوهمية . انها شأن ماهو منعزل ومكتفٍ ذاتياً تثير التحليل والشكوك في آن واحد . وشعرت بيدي تنسحب اليها بقوة ثانية .

ـ لست مدافعة عنه ، لكني أراك جاهلاً به ، فـانت تجهل الجانب المشتبك فيه ، كما تجهله في شارع الزعفران نفسه .

ـ وأنتِ كيف عرفتِ ذلك ؟

ـ نحن الخلطاء نبتـدىء بفرضيـة التعـرف والمعـرفـة ، ثم نخـوض حياتنـا كاملة في صـراع مشتبـك وأنـا لست قليلة القراءة ،فضلاً عن ذلك ، لكني قليلة الحظ معك !!

لوت شفتها ، وكنت متوتراً قلقاً ، لا اعرف ما انا بصدده . ترى هل أمضي منساقاً وراء خطة هذه المرأة ، فهي تريدني واقعاً في شباكها مشاركاً ، الطريدة المتنفذة ، استقبل عـواطفها وأخـوض معها احاديث الغرام والتلصص . حاولت أن أمقتها ، لكنها تأتيني احياناً بوجوه أخرى أحبها ، فهي شهرزاد تارة لبقة متحدثة تومض بالذكاء ، وهي تارة أخرى الانثى الطيعة الودودة الشهية المغرية ، تئن وتتوجع وتتلذذ . لكنها غير هذه في ساعات أخرى من المواجهة والاحتدام ، تبحث فيها عن المكانة والجاه ،مستعينة بوسائلها جميعاً مرة واحدة . وهي تدرك كم امقت المبتذل والمنحرف والمدنس ـ

ـ أتريدني ان أعيد عليك ماقلته مراراً ، لكل امرىء مانوى ، وزيدان وأنا نبتغي بلوغ نوايانـا ، فنحن شركـاء في النوايـا والاساليب .

ليس هناك ماهو أوضح ، لكني لا أجد مبرراً لانسياقي وراءها فألتمس راحتي في مزيد من الاسئلة :

ـ ألا تخشين الفضيحة ؟

ـ لاني اتحدث اليك ؟ لا !

كما اني اشتهيتك واحببتك . واستجمع لذتي عندما اعرض نفسي امامك ، الست القائل ، انها غريزة الانسان أن يعرض نفسه لمن يفهمه ؟

استوقفتني العبارة ، فهذه المرأة قرأت بعض مراسلاتي ، وبعضها اتذكره بجلاء اذ تقول بقية العبارة ، ان المصابين بالتناقض العصبي ينتقمون ممن يمنحونهم العطف ، بداثلّ لذويهم . لكنها قضية محددة استهوتني وتدارستها مع صديق لي مختص بعلم النفس . وتعددت فيها مراسلاتنا المتبادلة ، وأرى ان ملف (الرسام وهاب) قد احتواها مادة محتملة للفضيحة عند زيدان وثقاب . وخلاصتها لاتعني أياً منا الان ، انت أو أنا وقد يدفع حب الاستطلاع الاخر الى الاعتقاد بأن التكتم قد سرى في جسدي الزعفراني ، وخير لي أن أوجز هذا التلخيص :

الانسة (د) ليست غريبة على السيد (ب) . ذلك الرجل الانيق الذي ينفق على جلساته كثيراً ، وكانت تتردد عليه باستمرار

وقد اكتسبت من خلاله بعض المعارف الحديثة ، ولم يرها منذ أشهر ، حتى اتصلت به هاتفياً طالبة منه أن يلتقيها في مكان حددته له في شارع مجاور لمبنى الجامعة . كان صوتها يحمل قلقاً وهزالا وتوتراً ، مما اضطره الى الاحتراز واصطحاب أحد اصدقائه معه . وفي ذلك المنزل وجدها شاحبة كأنها مصابة بمرض مزمن ، وبمعيتها شخص سيء المظهر . استغرب مظهرها ، فاشارت الى انها على هذه الحالة منذ ان تعرضت لحادث اغتصاب ، وصفته ، وصورته مهولاً ، شارك فيه فضلاً عنه ، حسب افتراضها ، آخرون ، انتقتهم من بين الذين يخصونها بالرعاية . تبادر له انه ابتزاز ، فالرجل الذي بصحبتها افصح عن انه كان بصدد معاقبته والبطش به . اي تلفيق هذا ؟ كان يتساءل غضباً . لم يكن في المدينة منذ اشهر وحدد موعداً آخر للقاء بها وحدها . وقبل الموعد المحدد استشار طبيبها ، فأخبره انها تكثر من العقاقير الطبية المهدئة ، وانه يخشى ان تكون مدمنة على المسكرات . اذن قد يكون ماتقوله من قبيل الاضطراب النفسي ، اما الشخص الذي بصحبتها فقد وجدها صيداً لابتزاز الآخرين . في اللقاء ، قرر (ب) تجريب الاسلوب النفسي في المواجهة ، فصدمها بقوله انها تنتقم بوساطته من ذويها ، وبالتالي من كل الذين يحيطونها بالرعاية الخالصة .

ولتتجنب تقريع الذات تلجأ الى الصاق التهم بالمقربين اليها ومنها . يقول . عندما انتهى ، كانت تنظر اليه بهدوء ثم استعاد وجهها ، صفاءه ، ثانيةً .

واشتملت هذه المراسلات على تفسيرات أخرى لانماط سلوكية عصابية وأخرى تتشكل تحت وطأة القهر الاجتماعي والمسكرات والاختلالات العاطفية . لكنها وجهات نظر هواة ، غير متخصصة ، استهوت لسبب ما خلطاء الزعفران . وبرقت في ذهني فكرة خاطفة .

- هل تقصدين ان «زيدان» استساغ هذا الموضوع ؟

- عندما اوجزته له ، اعجب به ، ترى هل بقصد استخدامه ضدك أو لحاجة ما اليه ؟

- وانت كيف تفسرين الموضوع ؟

كانت تريد مني هذا الاعتراف بقدراتها .

- انه هو الاخر يميل الى الانتقام ممن يبدون على قدر عالٍ من التعاطف معه ، اعني التعاطف (الابوي) . كما انه يهوىٰ الابتزاز من الجانب الاخر . أي انه عصابي ، ومتمرد .

- اتقصدين ان ثمة مشكلات في تاريخه الشخصي فضلاً عمّا عرفت ؟

- ها أنت تبتغي اجوبة عن بعض الأحاجي والألغاز ،

وكأنك تهوى الدوران في دائرة الاسرار ومخاطرها أيضاً .

ـ أعوذ بالله ، فأنا مجرد متابع . .

ـ أية تقوى تتذرع بها هذه الايام ؟

عادت الى ضحكتها الفاجرة، التي اكتظت بها صالة الاستقبال . صرتُ أضيق ذرعاً بضحكتها، واشعر ان وقتي يضيع مع هذه المرأة، رغم انني بعد كل شيء مجرد هاو . ولكن هل اقدر على التراجع في متاهات الالغاز والاحاجي ؟ توقفت عن الضحك فجأة، وعيناها تمتدان نحو الرسوم التي تزين الطاولة المستديرة التي توسطت صالة الاستقبال، رسوم على الخشب ملونة ومطعمة بالاصداف. كانت هذه واحدة من مصنوعاتي الاثيرة، بذلت جهدا في صقلها ونحتها وتزيينها وترصيعها. نحن هواة الفن نبتدىء حيث نقيم اولا، فالهواية هي محيطنا الشخصي قبل ان تأخذنا همة الاحتراف الى الخارج. ومازلت كذلك حتى اليوم. متنفسي هو تصنيع الاثاث، وتجميله واعداد مداخل الصالات، ورسم اللوحات. قلما تبدو منجزاتي كاملة، فأنا مهووس بشيء لم ابلغه بعد، تصورات واخيلة التقط بعضها واحيله الى رسوم ومنحوتات وترصيعات ، وغالبا ما اتخيل اني على وشك بلوغ المرام، لكني اشعر بخيبة عجيبة بعد الانجاز، وكأني اخفقت في تحقيق ما تخيلته، وما

كنت احلم به واصبو اليه. لكن «ثقاب» لاتفقه في الفنون كثيرا. تستطيع ان تعيد ما قلت، وتناقشه، لكن شعورا ما ينبؤني انها لاتدرك غير المنظور. قالت : أية عيون هذه التي تفترش الطاولة ؟

ومضت تطيل النظر في الرسوم،

ـ أرى انها مختلفة متباينة، ولكن لا . . هاتان عينان واسعتان في الاعلى، والاطار . . والحواجب السود الكثة . . وما هذه العيون الداكنة السواد . . زوج هنا وزوج هناك . . لا أدري أية علاقة تقيمها بين الاثنين ؟ أرى ثمة فجرا او شمساً عند واحدة، وليلا عند اخرى . . بينما بدت العيون الواسعة ذات الرموش المسبلة فرحة مستبشرة و. . .

توجهت نحوي، كأنها تراني لاول مرة،

ـ متى انجزت هذه ؟

ـ قبل ايام فقط .

ـ تصورتك عكر المزاج، قبل ايام اثر اشتداد المحنة مع زيدان .

ـ لكل ظرف طابعه ياثقاب . .

تركتها تجيل النظر في هذه الرسوم، وتبحث في اخرى تنتشر في الاثاث القريب، بينما شردت بي الذاكرة الى ايام الامتحان الصعب بيني وبينه. ازعجه تحذيري من مغبة الاسترسال في اقتحام

خصوصية الزعفرانيين . كنت تعيسا ومأزوما، واشتد لدي الشعور بالمرارة من جانب وبمعنى المشاركة في درء النذالات، ووجدتني اخوض معركة ضده. كان جلال الدين الامين يروي مشكلاته باستمرار، واشعر بالاختناق، وتأتي «مثال» لتضيف حطبا لناري المتأججة، تبكي مصيرها العاثر، بينما تذكرت ما حل بغيري، وتصورت ما يمكن ان يتكرر اذا ما استمر زيدان سادرا في غيه. ولكن يجدر بي ان اخوض مسعى مختلفا، هادئاً ومدروسا؛ قلت في حينه لو ان (سمر) استنفدت هذا الهوس وهذه الكبرياء اللجوجة في داخلي، فهي واحتي وملاذي ومرساي، وديعة عذبة تحار الارض في استقبال قوامها الرشيق. . من اجلها في الاقل كان علي صده عن بعد، فها هي تبدو في ذهني كيانا رقيقا، ترفع راسها الصغير كبرياء، لتشدني كلما اقتربت بعينين سوداوين صغيرتين لامفر منهما لحين احتوائهما في داخلي، لتذوب بين يدي، طائراً ناعما يصدح بنغمات هيام ولوعة لم اتجرعها من قبل. خائفة ذلك اليوم، مذعورة كالطيور البريئة، وكنت حائرا على غير عادتي. فاجأني اثنان ليلا عند زاوية الشارع، يحملان سلة من الاشلاء الممزقة. قالا، هل تود ان تكون هديتنا للكلاب؟ اي عالم قبيح يازيدان ؟ كانت ليلة تعيسة، عرفت اثرها اني ازاء انسان رخيص لايتورع عن شيء عندما ينتابه الحس

بالاحباط والانكسار الاخلاقي والمعنوي . فهو يشتري وجاهة رخيصة. وعندما صادفته في نهار اليوم التالي، مبتسما ابتسامة مخادعة تكشف عن اسنان سود ملوثة، سره ان يعلمني انه محيط بتفاصيل حياتي :

- وماذا في ذلك يازيدان ؟
- لا . . اريد ان اكون عند حسن الظن، كما تمنيتني . .
- يا رجل اسرار الناس تخصهم وحدهم . .
- لماذا لا تتركني اذن ؟
- لا علاقة لي بك. ولكن بودي ان تترك المنافسة والمباراة في خصوصيات الاخرين . .

.

وبدت عيناه الجاحظتان كيانا تعيسا بليدا، نوافذ تجمع فيها الدخان والقذارة، واصبحت تطل على غيرها بذلك القبح، تمر امامي شريطا كدت انساه مرة، لولا ان عينيه تستعيدان لي، عالما رذيلا، فتلك العينان السوداوان تستجمعان مقته للاخرين، ليستقطب انتباهك انت المرصود اولا، موفدا من زيدان، لايعرف هذا الجرذ البليد غير الانتهاك، ترى ماذا يريد مني في هذا المساء ؟

مزمعا على الشر، هكذا تراءى لي. ولم اكن ادعي القوة الجسدية او المبارزة، ولهذا فخسارتي واضحة .

كان يأتيني منقادا، وعيناه ترتكزان على شيء ما يستمده من معدته، فهو بلا قلب، ماكنة مدربة او حيوانا تعيسا ألف الموت والقتل. كنت أرى الموت في عينيه يدنو مني، بليداً ثقيلاً قاتماً نرصدني، وشباكه تكاد تحيطني فتضطر عيناي للهرب بعيداً عنه، بنما يضجّ ذهني وقلبي بالابتهال الى الله ابتهالات تملأ صدري،وها نا الوذ بحبه، الذي يتدفق في جوانحي كما لم يغمرني في يوم، ويبدو ، الموت الآتي تافهاً، أزدريه، «من أحب لقاء الله احب الله لقاءه». ل تحبه يا أبتاه، هكذا يناديني صوته، ابن أخي، كلما رآني مغموراً 'اوجد مأخوذاً بعاطفته. ثمة تضرع قدسي تسرح فيه الروح محبة الخالق، خفيفة تحف بها الملائكة، طاهرة مزدانة ہلات والذكر الحكيم، وثمة قطة بيضاء تجيل النظر بعينين ـعمتين بالحب، تنتقل الوانهما بين الخضرة والزرقة والصفرة، هنا وهناك، متأملة بين الوجهين، عرفت انها العلامة بأن لا عاصم الا الله، آه. . ايها اللطف الغامر والرحمة الواسعة أحطني . . وتوقف ذو الوجه البليد، صنماً، كأنه مصعوق. .

لحظة الكشف الضاغطة هذه احتوت في داخلها الصور

والافكار، واصطادت الزمن، استوقفته، اعادته تكويناً آخر. . .
كان فأراً بائساً متخشباً أو مصدوماً، جرذاً. . لا. . كان بشراً،
رأيت فيه اكثر من وجه، مجموعة اللؤماء، بعيون سود متورمة،
بوجوه معروقة متخشبة، أكاد أمقت الحياة مرة والى الابد. . لكنها
لحظة. . انتشلتها عينا سمر، استرجعتني الى الحياة حبيبة دافئة،
الرحمة من الله والحب من فيضه، وأنا بعض مما وهبك الله. . .
انسابت برداً في قلبي، ورأيت المسافة شاسعة بين عينيه وعيني
سمر.

كدت انسحق امامه لولا لحظة الكشف هذه، محاطاً بدفق
رحماني يغمرني عبر العيون الوديعة الصافية، أملاً ندياً، بينما تيبست
يداه، وتسمرت نظرته في الفراغ، وأدرت وجهي عنه، وتخيلته
واقفاً، متسمراً. . لم أشمت به، ولم أعطف عليه، وهجرت المكان.

لكنها تكره شرود ذهني، فسألتني عن معنى واحدة من
الصور.

ـ رسوم الزينة لا تحتاج الى شروح.
اغلبها زخرفي. . الا العيون. .
ــ الّا العيون. . . ؟
ــ نعم، هنا عيون ملؤها الأمل، وهناك عيون مظلمة، وهنا

نظرة حسية، وهناك نظرة وجد قدسي، كل شيء نظرة ومنظور ومنظار، وقد تكون العدسة المنظور، ويلونها المرء كما يشاء . .

ـ وما معنى الاطر العيون؟

ـ «أينما تولّوا فثم وجه الله»

لا أسرار أمام الخالق، يا ثقاب.

كان صوت الحاج حمد يعيد الآية الكريمة.

ولم أكن أول المتجمهرين، ولست آخرهم، وما زال أهل الحي من الرجال يتقاطرون، وذهني مسرح احداث وأقاويل والغاز واحاديث، وأنا مبتلىً بما يزدحم فيه لولا أن يستوقفه صوت الحاج حمد بغتة، مرتلاً من سورة لقمان «ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ». كان يتهدج، والجمع يشتمل على اغلب الزعفرانيين، والحاج يشعر بالراحة، كما تدلل حركته الورعة النشطة، متمهلاً ملياً عند الآية الكريمة، معيداً بصوت خاشع «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم».

كنت قد رسمتها زخرفاً ولوحة جدارية واسعة في صالة الاستقبال، تستوقف الغادين والذاهبين. بذلت جهداً ليس ضنيناً

لأجعلها عملاً لائقاً بقداستها، لكني غالباً ما أرىٰ نفسي واقفاً قبالتها، متأملاً، باحثاً عن سر شعوري بعدم القناعة، ترى ما الذي بمقدوري أن أضيفه؟ لقد شغلت ذهني لهذا العمل لأشهر، عشت خلالها من أجله، لكني اكاد ابلغ الاستنتاج بانه «الاعجاز» الذي تتضمنه والذي يجعل مسعىٰ التجسيد أقل شأناً مما تبعثه من خشوع وتثيره من افكار ورؤى. فالمرئي مهما أوتي من ايحاء يبقىٰ دون المعجز بكثير. كنت أمامها عندما وجدت الحامد يستدعيني من لحظتي الغامرة تلك، كان يزورني،

- لو عاشت في قلوبنا لما كان هذا التناطح . .
- انت تخاف الله يالطفي ، ولا أخشىٰ عليك شيئاً .
- كثيراً لكني انسقت ايضاً وراء شهواتي في السنوات الاخيرة . .
- طلب المغفرة ميسور، والعبرة في تجنب الاذى، اذى الاخرين، أو في تجنب الكسب الحرام . .

لا أدري لماذا كنت أخوض في غمار حديث من هذا النوع ، فأنا لست ورعاً، ولا واعظاً، لكني ، شأننا جميعاً، نحتوي الشيطان في داخلنا ، نكبحه احياناً ونترك له المجال احياناً أخرى. وها انذا انقب في الأمور التي قد تدفع الحامد الى الاعتراف. اذ كانت الملعونة

ثقاب قد أثارت عندي حساً بالترقب والاستطلاع، ما هي حقيقة التهديد الذي لوح به زيدان؟ ولماذا يخافه الحامد؟ أهي الخشية من الكلام وحدها؟ هذا الرجل كان كثير الدعابة و المزاح، على خلاف ماهو عليه اليوم، كسيراً مستسلماً.

- أما زلت تشك في الاخرين يا أبا بثينة؟

هكذا شاعت تسميته، وهو لم يتزوج بعد.

لم يكن مرتاباً مسح على جبهته بمنديله الازرق الواسع الذي يضعه في جيب سرواله عادة.

- التعاسة تخنقني يا وهاب وتمنعني من الكلام .

- لكنك تقتل نفسك بهذه الطريقة، واذا كنت ترهب التهديد بالموت، فانت الان تحياه يا رجل. .

قال، كمن سبق أن فكر بالموضوع :

- لو طرق الموت على بابي لاستقبلته هاشاً، لكني أخشىٰ توريطي في فضائح مفتعله. .

- هل قتلت الفتاة؟

- انا، . اتصدق اني يمكن أن أقتل فأراً صغيراً. . ؟

لااصدق الاولى ولكني اصدق الاخيرة، فأنا رأيت الحامد يقتل فأراً صغيراً مرة قرب مخازن القماش التي تعود اليه.

وجلس على الأريكة، كمن يحمل على ظهره عبئاً تعيساً يود الخلاص منه، كان منهكاً وكسيراً، يود لـو يزيـح هماً معينـاً عن صدره:

ليس سراً أن يقع أبو بثينة العازب دائماً في حب فتاة هادئة وديعة طرية، كنت أزمع الزواج منها، لكن خطأي يكمن في انسياقي وراء اللذات ومجاراة الأخرين في حفلاتهم الصغيرة، لأحيا المكائد والاقاصيص، وأجامل النسوة، واسهم في نصب شراك الهزل. حتى ظنت (نبال) اني أميل الى فتاة أخرى، أو هكذا دفعت للاعتقاد. كانت تضيق ذرعاً بهذه الحفلات، وأنا سادر في نزواتي ودعا باتي، لتواجهني في تلك الحفلة التعيسة في حديقة منزلي غاضبة متأزمة، ثم لأجدها بعد ساعات في غرفة منعزلة، وحيدة وقد فارقتها الحياة، قال الطبيب انها تناولت جرعة من (. . . .)، ولكن كيف جاءت بها الى هذه الحفلة؟

في البدء كان مزاجها رائقاً. . رائقاً جداً، ثم تغيرت الامور. . ولم يدر بخلدي ابداً انها يمكن أن تقضي على نفسها بهذه الصورة.

كان قانطاً، ووجهه متهدلاً ذابلاً.

- هل تشك بوجود من دفعها لهذا المزاج؟

ـ لم افاجأ بالصور التي عرضها زيدان في منزل ثقاب، لكني فوجئت بعلبة عرضها أمامي تحتوي خاتماً مرصعاً بماسة ثمنية اهديته الى نبال، وأحدى عينيها مقتلعة ومغسولة.. ذهلت باوهاب.. قال لي، ماذا يا لطفي أصبحت من هواة جمع الخواتم والعيون..

فوجئت أنا الاخر بهذه الوحشية، وهذا الاصرار على التنفيذ القذر للنزوات الشريرة.

ـ ذكرت انكم وجدتموها منتحرة، وكفى..

ـ نعم، بقيت كواثر بصحبتها جسداً ميتاً، ولاندري ما حصل بعدئذ.. القضية تخص النسوة كما تعلم..

ـ لكنه هيأ سبل اليأس والاستدراج ومن ثم الانتحار.. ثم ابتزازك..

ـ الابتزاز مورس ضدي منذ زمن وانفقت الاف الدنانير، خشية الفضيحة، لكنه التهديد بالتنكيل والغدر.. فهذا الرجل يحوك شباك الاتهام والفضيحة..

ـ ولكن لماذا يتوجه ضدك تحديداً؟

ـ الابتزاز لتغذية وجاهته، وخشيته من متابعتي لاسراره..

أكاد ألم بهذا الجانب في شخصيته، لكني أبتغي استدراج الحامد

ليحيطني علماً بما توصل اليه من معلومات حوله. سألني:

ـ هل سمعت قبل عشر سنوات بقصة الحارس الليلي (أبو جبار) وبيت المجنونة؟

ـ اتذكر شيئاً ماحول الموضوع، لكنه يبدو بعيداً في الذاكرة لا أتميزة بدقة الآن.

بدا الحامد ميالاً للحديث من دون كثير من التشجيع. جلس عند زواية أريكة وسطية كمن يتصدر مجلساً في منتصف صالة الاستقبال، وجلست قبالته من الجانب الأخر. كان يستعيد هدوءه في صوت انبعث من ماضٍ لم تدركه كآبة السنوات التالية:

من هم بسني يتذكرون ذلك الحارس الاسمر الطويل، أبا جبار بوجهه النحيف المعروق الاسمر وعينيه الحادتين كالصقر، وكوفيته المخططة المشدودة على رأسه، وحزامه الجلدي العريض الذي يحصر بينه وبين جسده خنجره ومكواره. أما بندقيته فلها شأنها عندما (يتنكبها) أبو جبار. كانت صفارته ايذان الامان في الازقة الخلفية، أميناً وفياً وحاداً قاطعاً. أحب الناس أباجبار وأحب من جانبه المنطقة أيضاً. لايرتضي الغرباء ليلاً، هذا ما عرفنا عنه، لكنه يشفق على المجنونة، فهي تحتاج الى اقربائها، والله يوصي بالعناية والرحمة والستر، وأبو جبار تتقطع نياط قلبه وهو يسمعها صارخة

مولولة في بعض المرات. الله يمنحها العقل ويحيطها برحمته. لكنه استغرب في تلك الليلة ، اصوات كانت تنبعث من البيت. . ، ثمة من كان يداعبها وتنفجر ضاحكة. وهو يعرف انها مولعة بسكنى الغرف الامامية مساء، لتطل منها عبر نوافذها المشبكة بالحدائد المثمنة على الحديقة الامامية الصغيرة ومنها على الشارع متوقعة زيارة بعض أهلها. أما النهار فهو وقتها الأخر مع البركة التي يحتضنها المنزل من جانبه الخلفي وتسورها الحديقة الكبيرة، والتصق ابو جبار بالسياج، كان صوت رجل، وقرر ان يدخل من باب الحديقة الامامية، كان النور الداخلي يقوده بسهولة الى حيث تقيم المجنونة، بينه وبينها قاطع من الحديد المشبك أيضاً، وها هو يراه، زيدان نفسه، يداعبها ويتحدث معها وهي فرحة وجذلة على الرغم من انها تجاوزت السبعين، أوتكاد، عجوزاً، تتوهج عيناها الحمراوان جمراً مع ضحكاتها. . . جنية سعيدة. . هكذا تخيلها أبو جبار.

«جنية سعيدة» هكذا نقلها الحامد عن لسان أبي جبار، عبارة طارئة، لكنها جرجرتني بعيداً عن صوته الرتيب، لأستعيد شيئاً قبع بعيداً في ذاكراتي، استرجعت عبارته، جنية سعيدة. ابو جبار نفسه كان يعيد هذه العبارة، كلما أسرف في الحديث عنها، فهو الأخر شغوف بقصتها. تلبستها روح ذكر من الجن، هكذا قال،

واستغربت في حينه أن يكون هناك ذكور واناث. لكنه ردني، فالحارس أبو جبار يخشىٰ الخوض الهازىء في مجال الارواح، تطارد من يستهين بها، قال لي محذراً. تلبستها الروح لدرجة العشق، وغاصت في ثنايا جسدها، تساءلت: والخلاص ؟ الا يتمكن الاطباء من تخليصها؟ هز أبو جبار رأسه بالنفي، فهو وريث المفاهيم الشعبية الدارجة، عرضوها على العشرات منهم، فشخصوه ضعفاً في الاعصاب مرة، وتهدماً في الخلايا، ولوثة جراء ضربة مفاجئة على الرأس أو اضطراباً مفاجئاً لسبب ما.. كان بوجهه الاسمر النحيف المعروق وانفه الطويل البارز وعينيه الحادتين ينفث دخان سيكارته بالحاح، حتى بدت لي شفتاه المحروقتان موقداً صغيراً، فأنا الأخر وجدت نفسي مفعماً بالاجواء العجائبية، واختلطت عندي الوقائع بالغرائب، أي تلبس وأية شياطين يا أبا جبار؟

واستفزّه السؤال! إحذر عوالم الارواح يا وهاب وتوكل على الله لئلا تنال منك.

كانت شابة جميلة ياوهاب، تسر العين، فاتنة، من لا يتذكرها؟ لكن الحياة اسرار والستر واجب، ونحن مؤتمنون ياوهاب..

نعم، ابو جبار لايخوض في مايعدّه ستر الأخرين. وذكر شيئاً طفيفاً عن زواج وصدمة وقطيعة، وتعوذ بالله من الشيطان، وتجاوز الموضوع كله، ليتوقف عند الأمر الذي تشكل في ذهني شريطاً مصوراً متحركاً:

لكنه التلبس الذي احالها عيوناً كالنار - وفماً كالجمر وشعراً طويلاً مسدلاً كأشرعة سود في يوم عاصف.

صاغها بعبارات شعبية دارجة، لا اقدر على استرجاعها، لكني استعيد ما عنته في ذهني حينئذ، صورة متحركة.

عندما يشتد التلبس عليها، تعاف نفسها الاكل والشرب لأيام، ويصيبها الهزال، وتنفجر في حركات وصرخات لاتعدّ ولاتحصىٰ، لا تحد ولا تكبح وتتحول حياتها ذلك اليوم استنفارا من الهيجان لا ينتهي الا عندما تنهار أو يلجأ أهلها الى شدها بالحبال..

وشأن صحبي من المتعلمين والمطمئنين الى العلوم التجريبية، لت أرى الطب العيادي قادراً على شفائها، وابو جبار يصر على الأمر خرج من ايدي الاطباء.، والنفسانيين؟ كذلك، بل كان و جبار يسخر ازاء هذا الالحاح، هكذا شعرت وهو يهز رأسه هزات جزوعة. اذن مالحل؟ استعانوا بشيخ مجرب في استنطاق الارواح وفك ارتباطها باجساد المعشوقين كان قد حضر هذه الجلسات، وطرد الشيخ من يشك في قلة اعتقادهم بهماته وشفاعته

واستعان بقراءات من الذكر الحكيم، ثم بدأ عمله:

ايها الجن الساكن في جسد سمية، أسألك الاستماع لي، والرضوخ لما أقول . .

ويبدأ بقراءة تعاويذ لم يفهمها أبو جبار، ولا غيره من ذويها، واستعان بالنار القريبة منه، ينظر اليها بين لحظة وأخرى، وهو مستمر في قراءاته، مركزاً على جسد سمية، وعلى وجهها، وكلما مضى في القراءة والابتهال ينتفض ذلك القوام الرشيق الممدود أمامه، وطالت القراءات وكثرت انتفاضات الجسد وآلامه. . وتصبب العرق من وجه ذلك الشيخ المسن، وبدأ التهديد والوعيد. .

أخرج، والا أحرقتك.

ويبتدىء الجسد يمشي على أربع متجهاً اليه، متضرعاً من خلال عينين كالنار وفم أحمر قان ووجه شاحب، يقبل قدميه، طالباً الكف عن التهديد. .

ويعطيه الشيخ مهلة، ليبتدىء قراءاته وتعاويذه وادعيته،

ايها الجن الساكن في جسد سميه، أسألك الاستماع لي والرضوخ لما أقول. .

والجسد ينتفض، والشيخ ينتظر، والعرق يتصبب من جبينه، ونحن نكاد نكتوي، أو هكذا نشعر بالنار التي تلتهب في

ذلك اليوم الحار بجوارنا في «موقد حديدي» . احسست بالجو مزدحماً، خانقاً وحاراً، والدخان يغشىٰ وجوهنا، ويدمع اعيننا، الابتهالات تريحنا تارة وترعبنا تارة أخرى، وكلما مضىٰ الشيخ في القراءة والتجويد، أجهده الاداء وظهرت المشقة واضحة على وجهه المحمر وشفتيه المتيبستين، وثمة جسد ينتفض، ذليلاً متعباً، وهو يبتدىء رحلته الأخرى من التهديد والوعيد، ايها الجن اخرج والا أحرقتك. .

ويأتي بقطعة بيضاء احتضنت ورقة مكتوبة بماء الزعفران عليها بعض الاشكال والرسومات، طواها بشكل لفافة، حرق طرفها مقرباً أياها من أنفها، وجسدها يتضرع ويمشي على أربع، متوسلاً. .

أخرج اذن من قدميها، من اظفارها وهدده بالحرق، وكرر تهديده، والرأس يهتز رافضاً. ونحن نترقب وتكاد انفاسنا تتوقف خشيةً وخوفاً، حتى ان أبا جبار الذي لايعرف الخوف، خفت يومها يا لطفي بيك، مازلت أستعيد عبارته، وعيناه الصغيرتان تسترجعان الرعب، تصور الرعب في عيني صقر. .

ونظر الينا الشيخ ، قال ان بامكانه اجبار الروح الساكن في جسد المريضة على المغادرة عن طريق العينين لكنه يخشىٰ أن تموت. وليس من سبيل آخر أمامه. حاول أن يستدرجها لقول الذكر

الحكيم، وطلب الغفران، لكن جسدها يتيبس، ويديها تتسمران، وصمتاً عميقاً ينتابها، فالجن الشرير (غير الخير) لايستعين بالذكر الحكيم.

كان أبو جبار مفعماً بعواطفه، وأنا استعيد جلسته تلك مأخوذاً بطريقته في القص، فهو نمط حياة شعبية شغوفة بالحركة والاوصاف وعوالم الروح وما نعده غريباً أو غير مألوف. لو تسألني الان لماذا لم استفسر منه عنها، عن ذويها وعن تفاصيل حياتها، لاستغربت منك ذلك. اذ يكفي ان تحضر مثل تلك الجلسة لترى ان ابا جبار تلبسته هو الأخر حالة أخرى، نقلته بعيداً عن مثل هذه التفاصيل، وسرت عدواه الي، فكنت مأخوذاً أيضاً، انظر في عينيه الصغيرتين وشفتيه المحروقتين، متابعاً حركة يديه، وهو يمضي مسترسلاً، بينما يظلل دخان سيكارته كلماته بحجاب آخر غير الذي اعتدت عليه في جلسات الصحو الميتة.

- وماذا دهاك يا وهاب؟

جفلت، كمن يوقظ فجأة من غفوة سريعة يحتاج اليها الذهن. و رأىٰ اضطرابي في وجهي،

- لكني لم استكمل ماحصل بعد زيارة ابي جبار للبريد. . .

الحامد شغوف بقصته، أسيرها الأن، فعيناه تبتغيان

استرجاعي الى دائرة الاصغاء، منصتا. كان يصفها بـ(الجنية السعيدة)، هكذا كان يكرر، مسبحة صفراء يختلط فيها لون البرتقال الناضج تنشغل بها أصابع كفه اليمنىٰ وأنا انشدّ اليها جميلة هكذا بدت لعيني، تتناقل اصابعه خرزها المدور بتوتر ما تفصح عنه تصادمات الخرز بعضها بالبعض الأخر. لكن عينيه تبغيان الاستحواذ علي.

- كان أبو جبار عجولاً ذلك اليوم، وكأنه يريد أن يتفضل على زيدان بمساعدة ما..

- كان يعرف انه يتكرر على البيت المسكون..

لم ينتبه الحامد الى تلميحي هذا اعتماداً على ما نقلته لي ثقاب عنه،

- لا اعتقد، فأبو جبار يؤدي نوبات الحراسة حسب المناطق بالتبادل مع غيره من الحراس ولم يلمح لي مرة انه رأىٰ «زيدان» في البيت المسكون..

- اذن كان زيدان يتقصد تجنب عيني الصقر. ويزور البيت المسكون في غير أيام نوبته..

- نعم ويتجنب انتباهه أيضاً، فأبو جبار حريص على المنطقة التي تشملها نوبة حراسته.

وماذا حصل بعد الزيارة؟

ـ تقول ثقاب انه زارهم فرحاً مستبشراً، قائلاً لزيدان انه فعل خيراً بزيارته ليلة البارحة للمجنونةفهي تشكو العزلة في الايام الاخيرة . .

لايخلو الموضوع من أهمية واثارة، وومضة انسانية، كنت مستطلعاً فاستبشر الحامد، وعدل من جلسته،

ـ كذبه زيدان، وسخر منه، كان مصفر الوجه مرتبك الملامح، هكذا تصفه ثقاب . .

اما الحامد فقد كان مزاجه رائقاً، وبوده أن يطلق لنفسه العنان، بذلت جهداً للتركيز وسرّه ذلك .

ـ بعد يومين، وفي ليلة ممطرة كان الحارس أبو محمد يبحث عن أبي جبار لتنظيم نوبات الحراسة بينهما، «لم أجده في الاماكن التي اعتدنا ان نلتقي فيها. وطفقتُ ابحث عنه في الازقة، لعله استساغ الجلوس أو المجاملة. كانت ليلة تعيسة، يرشق رذاذ المطر وجهي كما رشق الاشجار والبيوت، فالريح لم تكن هادئة، وأنا لايمكن أن اغادر الى منزلي دون ترتيب نوبة الحراسة مع ابي جبار وكنت اعتدت الازقة نظيفة، عادة، لكن ثمة شيئاً يلمع عن بعد، فوق كدس ما داكن بين الشارع ورصيفه عند المصباح الكابي في طرف الزقاق الداخلي الذي يوازي شارع الزعفران، بين زقاق البيت المسكون،

وزقاق الامين الجانبي، وذهبت مسرعاً الى هناك، وقلبي يخفق. كان نصل الخنجر منزوعاً من غمده، لم يكن عسيراً عليّ أن اتعرف منذ الوهلة الاولىٰ على جثة صديقي أبي جبار.. معفرة بالطين واوراق الاشجار، كان هنالك أيضاً طائر غاق ميت بقربة، وكلب مبتل يقعي تحت الشجرة القريبة..

استعادها الحامد قصة وحدثاً وقضية ولم يكن هناك ما يدعوني الى استجواب ما يختزن من معلومات، فهو يطلق نفسه في الحديث اذ لم يعد يقدر على الصمت.

ـ أني اتساءل مرات يا وهاب عما اذا كانت طبيعتي الشخصية حبي للناس وألفتهم يدفعاني الى نزعة الاستطلاع هذه؟ لست منكم معشر المثقفين والفنانين، فأنا رجل أعمال، منهمك بأعمالي احاول ان أديرها جيداً، والامين يحسدني على همتي الاجتماعية وعلاقاتي، لكن نزعة الاستطلاع جعلت مني لبقاً، هكذا يقول الأمين. أخوتي يستغربون هذه الطلاقة، لكنها توقعني أيضاً في مصائدها فها أنا أجد متنفساً في الحديث، والحديث ورطة، والصمت من ذهب، ولا غرابة اني أبذر ذهبي، متلافاً ياوهاب..

وأسأل نفسي، هل أكره زيدان؟ أم انها تربيتي الزعفرانية تدفعني الى أن أمقته وأزدريه؟؟

وعندما أيقنت من مزاجه المجرم لم أعد أطيقه، فهو أكثر من

قاتل، فهو يلجأ الى اجرائه، ممن يترسمون خطاه، وينفق عليهم مما يبتز. انه عصابة مريضة، هكذا تخيلته. والا كيف تفسر مقتل نبال؟ لم تكن معها غير كواثر ونساء أخريات. ونقبت في الامر، وعرفت من أحد المتعاملين معي في السوق انها ابنة خاله، يدعيها خليلة للتستر، لانها العارفة باسراره ومشاريعه.

اضطررت الى مقاطعته.

- هل تقصد انها الجانية؟

- تصور «نبال» مدفوعة بالغيرة، لتهيأ أمامها فرصة يسيرة للانتحار، ليس غريباً عليها ذلك، فقد حصل كل ذلك خلال ساعات، بين فرح وتوتر وغيرة وانفعال وموت. .

- ولكن لماذا اشتدت خصومته لك؟

- لماذا انتهت حياة الأخرين، زيدان مصاب بعصابية، كما تسمونها، وخشيته من الفضيحة تهدده بشكل آخر غير الشكل الزعفراني المعني بالمظاهر والاقنعة. لقد تحولت لديه الى مرض. . تسمونه. . .

«رهاباً»، هكذا وجدت نفسي أعينه على التقاط المفردة، وهو يضغط بأصابعه على مسبحته.

نعم، هذا الرهاب يتزايد عنده حدة ويدفعه الى الانتقام

خشية الاندحار أو الافتضاح، فهو يتربع على سمعة أو جذها لنفسه بين أهله وبيننا يخاف عليها ويدافع عنها. وأنا مثلت أمامه بعضاً من هذا التهديد. ما كان ينبغي أن أحدث ثقاباً بأمر البيت المسكون، هذه بداية انفراط العقد بيني وبينه.

تظاهرت بالاستغراب، واقتنع بذلك،

ـ نعم، البيت الذي يجاور بيت المجنونة. كان يتنقل فيه بألفة عجيبة، كأنه منزلـه، يتحاور مـع أرواح ساكنيـه، ويختلف معهم، ويناجيهم، ويضحك.. كنت مرعوباً، ولعنت خلال تلك الساعات، حظي الذي دفعني الى هـذا الموقف. أهـو ساحـر أم مجنون؟

كانت ليلة رطبة مظلمة، واشجار اليوكالبتوس تظلل منعطف ذلك الزقاق الذي لايضيئه غير مصباح كابٍ، وكنت أتلمس طريقي بحذر بالغ، فأنا أجاهد كالزعفرانيـين للابقـاء على نفسي سليـماً معافىً. ، ولما اعتادت عيناي على الظلمة استطعت ان اتبين شخصاً قرب منزل المجنونة، فأنا، كما يقول الامين أتآلف مع الظلام بحرية وسرعة، فأمهلت السير وأطلت النظر، ورأيت الرأس الذي ينحدر الى الخلف، وجلب انتبـاهي لمعان السلسلة الـذهبية، واقتـربت متستراً خلف الاشجار، بينما اندفعت خـطواته ثقيلة نحـو المنزل

الآخر، راقبته بتوجس، من خلف جذع شجرة منخور، وتخيلت ان الديدان أخذت تنزلق على خدي، فلطمتها بعصبية، لكني أبقيت على هدوئي. كان يفتح الباب بهدوء، فتحركت خطوات الى أمام، وقطع هو الممشى القصير بخطوات واسعة كما يبدو، فسرعان ما سمعت صرير الباب الداخلي، كان باباً حديدياً مزيناً بالزجاج الملون، دلف الى الداخل، كما تبين لي من النور الذي أضيء عندئذ ودلفت انا الأخر متستراً بالجدار الذي يفصل بين المنزلين، كنت مرعوباً، وساقاي تعجزان عن حملي، لكني استمرأت المغامرة، وأسندت رأسي الى جدار الغرفة المضاءة، مطلاً على داخلها من خلال فتحة سمحت بها الستائر السميكة، وتنقل داخل تلك الغرفة، ليتأكد من إسدال الستائر، واعتقدت انه جلس لبرهة إذ طفق يتحدث بعد لحظات، كمن يداري كياناً أمامه، يواسيه ويمسح على وجهه، أو هكذا تخيلته في الاقل.

لاتبكي ياعزيزتي، لن أتأخر عن المجيء في المرة القادمة.

كان صوته يتهدج، كمن يبكي، اتعتقدين اني أستطيع البعاد عنك؟ (لم اتخيله رقيقاً كما هو عليه اليوم). أنا ابتعد عنك، معاذ الله، الخال هو الذي يرفض، اما أنا فمنيتي أن نكون معاً طيلة العمر.. الا تلاحظين اني أرفض الزواج من غيرك.

ومد ذراعه كأنه يقودها الى مكان آخر، كان مزهـواً وعيناه تتسلطان على من يحاور، شبحاً بالنسبة لي، ودلف الى غرفة قريبة وأخليت مكاني منساباً بهدوء الى الجانب الآخر، ودلني الضوء الى حيث كان يداعب من يداعب ويبتسم ويناجي، ويمد يديه، كأنه أمام جسد بلوري، كان مأخوذاً، عيناه تـزدادان جحوظـاً، وهو يمضي ملاطفاً، مداعباً. . واستمر لساعات. . ثم أطرق بعـدها ساهماً. . وتركته لأتسلل الى الخـارج بحذر، كـانت ليلة مظلمـة رطبة، وريح خفيفة تمر بالشارع، بينما يطلق أحد الحراس الليليين صافرة تعلن ان الأمور تمضي بخير.

وأضاف الحامد

ـ لم استطع جمع الخيوط حول معرفته بهـذا المنزل الا بعـد لقائي بشـريكي جلال الـدين الامـين. . كـان يـومـاً غـريبـاً من الاعترافات والمصادفات. .

تـظاهرت بـالهدوء، فـأنا الآن في اشـد حالات الهيـاج وحب الاستطلاع،

ـ ما الذي يعرفه الامين عن زيدان؟

ـ لا، ليس الامين جاهلاً بحياة زيدان، لكنه محدود المعرفة، قليل

التشبث بالمعلومات، منكمش على شؤونه المالية، والعائلية،
هكذا فوجيء به زيدان، بعد ما تصوره اكثر خبثاً. .

ـ لكنه طارده وضايقه على الرغم من ذلك. . .

ـ نعم، كان يميل الى تعذيبه، كمن يقتص منه. .

ـ وهل أدرك الأمين السبب؟

ـ ليس الامين مجازفاً، فقد تصور الأمر ابتزازاً أو بعضاً من وضع زيدان النفسي العام ازاء الناس. . انسان محبط في اجواء الوفرة المادية والاستقرار، هكذا ينقل عن ابنه صابر بتلذذ.

ـ هل تلمح مثلاً الى انه يجهل البيت المسكون؟

ـ لا، اخبرني مرة ان المنطقة تعود ملكيتها الى والده قبل تفريقها وبيعها، باستثناء بيت المجنونة.

استوقفني الامر، فالحامد يعرف شيئاً ما عن المجنونة ويضمره، وليس هناك ما يدعوني الى استفزازه، فهو ميال الى ازاحة ما بصدره ما دام قد بدأ. حرك يديه بشدة، وكأنه يزيل بعض الاوهام العالقة:

ـ كان الأمين يتصور والده محسناً تفضّل على المجنونة بهذه الهبة. .

ـ ولماذا «تصور»، وكأنك تدحض ذلك؟

ـ نعم، جاءته رسالة تخلو من التوقيع مشفوعة بقسيمة عقد زواج بين المجنونة (سمية عبد الحليم) وبين والده ممتاز الامين. كنت في زيارته عندما وردته الرسالة، ولم يجد بداً من الاستعانة بي، كنت اقرأها، وانظر اليه من طرف خفي: فزعاً مصفر الوجه، هكذا رأيته، وشاربه الكث يرتجف بينها شفتاه المكتنزتان جافتان، فجأة وينطفىء البريق في عينيه، كان ينتظر مني العون والمساعدة، تقاطعني بين لحظة وأخرى حشرجات وهمسات جزعة متألمة تصدر عنه. تقول الرسالة:

السيد جلال الدين الامين:

قبل أن تستغرب أمر هذه الرسالة، أرجو أن تطلع على العقد المرفق. لاشيء خطير البتة، عدا ان سمية عبد الحليم، المجنونة في اعتبار شارعكم العتيد ـ هي أيضاً الزوج الشرعية لوالدكم الموقر ممتاز الأمين، وما زالت على ذمته. ترى هل تستغرب انها كانت زوجه العزيزة المدللة، وبعد هجرانها وضعها في هذا المنزل، محاطة بالاسيجة والاسلاك، مخصصاً لها هذا المنزل ونفقات رعاية مناسبة تتيح لها الاستمرار في الحياة. انها زوجة ابيك شرعاً، وقد تكون لها ذرية، من يدري، لكن

الامـور ليست جميعها معلنـة للآخـرين، وقد تتكشف خطوة بعد أخرى، فالدنيا صغيرة، وهي أكبر من شارع الـزعفران كـما ان هدوءهـا نسبي، لاننا نجهـل همـوم الاخرين. . وسمية واحدة من هؤلاء المجهولين. . .

ونظرت الى جلال الدين الامين لم يزل واجماً ومتوتراً، منتظراً مني أن انتهي من القراءة، فهو يختنق بما يريد أن يزيحه عن صدره:

ـ لكن هذا مستحيل يا لطفي، لم يذكر والدي شيئاً عن هذا الزواج.

وكمن يعيد النظر في ما يقول، كان يتريث قليلاً، ليضيف:

رأيت المجنونة مرة، فرت من دارها، كما يقولون، ولجأت الينا كان عمري ثماني سنوات، سمراء فارعة ذات عينين محمرتين، لم تزل شابة بعينين محمرتين كأنهما الجمر، الجمر الملتهب يا لطفي، أتذكرها بذعر، وشعرها ينسدل على كتفيها ويفيض على جسدها، كأنه اشرعة مسبلة للريح في ليل أسود، يكاد يطويها ويلتف حول وجهها. اي وجه، لااتذكر منه غير عينيها وشفتين كحبتي كرز جافتين، سواد يحيط بحمرة داكنة، كنت أرى شعرها، تظهر منه هذه الجمرات الحمر، يغرق عنقها وصدرها النـافر، مهـرة شرسة، ترفض الترويض.

ترى هل تزوجها؟ لماذا جاءتنا هاربة ذلك اليوم؟ ولماذا يتركها ويهجرها؟ كانت شرسة، حادة قلقة، لايتسع لها مكان، وعيناها تبحثان عن كـل شيء ولا شيء، وأنا مذعور منها ومنشد اليها، وابي يرتجف، ويجيل النظر بينها وبين أمي، حائراً كيف يحميني مما يجري. لم يكن يدري ما يفعـل، واشفقت عـلى ابي، وأنـا مـذعـور، ثم جـاء شخص، لا اعرفه، استجابت له بيسر، وأذعنت بهدوء، وانقادت اليه، وأبي يردد كأنما يقنع نفسه، «عادت الى منزلها. . عادت الى منزلهـا». ولم يضف شيئاً، وأمي لم تسأله، أمامي في الاقل، وأبي يتهرب كلما سألته أنا عنها. وظل يستغرب انشـدادي الى هذه المـرأة، هذه الـطاقة العجيبة الفاتنة. . كان يتهـرب كلما سألتـه. . وقلما تمر السنون دونما سؤال مني، وهو ينظر اليّ مستغرباً دائماً، تاركاً أياي وحيداً دون جواب. . ولم يذكر الاخرون لي شيئاً عنها. . ومرت السنون يا لطفي، وأنـا أراها الان الوجه الاخر لشارع الزعفران. . السر الذي يتكتمـون عليـه. . قـد تشبهــه العشـرات. . التي نلوذ منهـا ونتحاشاها. . لتأتينا مكتوبة في اوراق تقلب وجه حياتنا المستقر، جمر سنمية سيأتي على الدواخل والسطوح. . .

وجدت نفسي غارقاً حتى اذني، كما يقولون، بهذه الاسرار، وبدا لي الحامد يدخر مخزوناً عجيباً من الحكايات والالغاز، ولم أر بداً من الاستماع اليه، لكني، وأنا أشعر بالرغبة في الاصغاء اليه، أحار في ترتيب اسئلتي، ترى من يسبق من؟ وهل يهمني حقيقةً أن تترتب الأمور في سياقات معينة؟؟

«جمر سمية سيأتي على الدواخل والسطوح» هكذا نقل الحامد عن شريكه الامين، قولاً بدا اعتيادياً على لسانه، لكنه حمل احساس الامين بالفجيعة، احساسه بأن الاستقرار الذي ينشدونه جميعاً ضرب من الوهم ما دام مبنياً على الأحاجي والالغاز، فالطاقة السرية المخزونة في النفوس والقلوب والمنازل والمياه والارض قد تتفجر لهيباً عجيباً، تختلط عنده الأمور، ترى من يمتلك يقينها؟ اليقين صعب البلوغ ما دام الباطل والادعاء والزيف قوياً، أما نشدان الستر والاستقرار في امنية أو أخيلة نتدافع من أجلها ونتبارى، وننسىٰ في المباراة اننا كلما تدافعنا، نبتعد عنها، مستعينين عند ذلك بالادوات والاسلحة التي تقوضها. الاستقرار يبتدىء في الذات. هكذا كررت للحامد، جاعلاً من نفسي واعظاً من دون مناسبة، فأنا الآخر أبعد ما أكون عن الوعظ. بل ان قصة سمية عبد الحليم لاتعنيني في شيء غير انها أثارت عندي حساً غامراً بمعنى الفورة التي تجيش في النفوس، حبيسة جراء الاعراف، ومتفجرة

عنيفة عند غيابها. وعند سمية تغيب المغاليق التي تحول دون هذه الفورة. كنت اتخيلها مثل لوحة، فهي لاتمسك بسهولة، وبقيت عيون الجمر تشتعل في ذاكرتي، توقدها وتحيلني كياناً اثيرياً طافياً أو منفصلاً عن الاخرين وعيون الجمر ترتسم أمامي وأنا ابتعد عنها لأحسها مشعلاً يوقد الحرارة في ذهني، أخيلة ورؤى، ومعشراً غريباً من القطط، بيض وسود وأخرى حمر ومخططة بالاسود والأرجوان، دفق منها يتحرك في طرف الزعفران بعيون تتوقد عند المساء، جمهرة تتحرك الى أمام، يتقدمها هر ضخم مرقط بالاسود والابيض، والعيون تبدو ملتهبة عند المساء، لم أر البشر ذلك المساء، وكأن الزعفران ملك القطط، ثم تدفق آخرون من الازقة، منضمين الى هذا الحشد الذي يمضي بهدوء عجيب، والعيون تشبه انواراً حادة وأخرى خاطفة، تتغير وتتبدل، لوحات متنوعة، بريقها العجيب يستوقفني، وانا لا ادري هل كنت ارصدها عن بعد، اذ لم أكن بعض ذلك القطيع، واستغربت الىٰ اين تذهب هذه العيون ووهجها الغامر. كان المساء يختفي في عيونها. وحدقاتها تصبح نداءات نهار عجيب، يظهر ويختفي، وأنا متوجس بين الريبة والارتياح، ومضت القطط، تتجه نحو منتصف الشارع، لتتمهل في سيرها عند دائرة البريد، ورأيته يقودها نحو صناديقه وبوابته، وانشددت اكثر الى ذلك المشهد، وثمة همس يتصاعد واصوات

مختلفة تظهر عن الحشد، والهر يركل الصناديق باقدامه وثمة عينان تظهران في زاوية ما، لم اتبينهما من قبل، سوداوان صغيرتان حادتان تفيضان بالحب، وابتسامة لامعة صغيرة، تومىء لي أن نذهب بعيداً، اتجهت نحوها، كانت جذلة تستقبلني بصوتها الناعم الرقيق، فأحيط خصرها النحيف بذراعي، وهي تخشىٰ أن تطأ قدماها الارض.. فكأننا كنا نطير..

وجدته ينظر في عيني ، ومسبحته تنساب بين اصابعه برتابة ، وكأنه قد استرخىٰ قليلاً هو الأخر ، فبادرته بالسؤال :

ـ لكنك لم تذكر شيئاً عن زيارات زيدان ؟

ـ لاتظن اني اجهل هذا الامر ، لكن الأمين ارتبك وتلعثم وازداد توتراً عندما ألمحت اليها .

ـ وما شأنه بالأمر ؟

ـ يعتقد ان كل مايقوم به زيدان يدخل في نطاق نصب الفخاخ له . .

ـ واستمر الشك . . ؟

ـ لا ، تصاعد ليصبح استقبالاً استسلامياً للرعب . . خطوة خطوة . .

واستعدت صورة الأمين خلال تلك الايام ، بدا مرعوباً

ومفزوعاً فعلاً ، فالرجل يشعر أن الشراك منصوبة حوله ، «الدنيا شباك» هكذا كان يقول لي بعد التحية مباشرة .

ـ هل تتذكر الحمى الشديدة التي الزمته الفراش ؟

ـ نعم ، والتقيتك مراراً عندما كنت ازوره .

ـ أقصد ، هل تتذكر اصراره على ابقاء الستائر القرمزية مسدلة طيلة النهار ؟

ـ اتذكر انه صاح بي مرة أن أعيدها الى وضعها السابق عندما بادرت الى فتحها في يوم ربيعي مشمس . .

ـ هذا ماحصل لي أيضاً ، وتخيلت انها الحمى ، كنت مستغرباً منه ذلك أول الأمر . .

ـ ولماذا استغربت ؟! اخبرتني ابنته عاليه انها الحمى تجعله يصرخ ويصيح ويهب من فراشة مذعوراً . .

ـ هل تتصور غرفة الاستقبال في منزل الامين ؟ انها تشكل ركناً مطلاً من ثلاثة اضلاع على فناء الحدائق الواسعة . .

ـ نعم ، هكذا هي في الواقع .

ـ والامين أحد الزعفرانيين القلائل الذي يترك باب حديقته مفتوحاً ، لتسهيل دخول سيارة ابنه وبناته . .

ـ صحيح ايضاً . .

ـ وجدته عاليه في يوم من الايام يصرخ : هي بشعرها

الاسود المخلوط بالبياض وعينيها الناريتين تطرق على زجاج النوافذ ، كان يصيح بصوت متقطع بين الاسى والرعب ، عجوز هرمة ، يصحبها الغاق . . هرمة يصحبها الغاق . . يطرق على النوافذ .

ـ قد تكون المجنونة هي القادمة ؟

ـ اجزم بأن الامين أصيب بالذعر عندما رأى المجنونة ، الهرمة بجمرها الملتهب في العينين والفم . .

ـ والغاق ؟

ـ تربيه منذ سنوات في تلك الحدائق في البركة التي تتوسط حديقة المنزل الواسعة ، كما وصفها لي أبو جبار في حينه . الغاق يحب الطيران والتنقل بين الخضرة والمياه والفناءات الواسعة . لاتنس انها هواية مجنونة . . واستطيع تصور رعب الامين والغاق يأخذ بعض طباعها ، الغاق يطرق على الشبابيك ، والجمر الملتهب في العيون والشعر مشرع للريح الجمر الملتهب ، في رأسي ، وأنا أفقد نفسي ، صوت الحامد قصي ، اسمعه همساً متقطعاً ، وعيناي تنغلقان على مايحيطني ، وأراني في أرض بور واسعة ، وثمة نسر يلوح في السماء ، يبتغي أمراً ، ومازال يطوف حولي ، وعيون حمر كأنها الجمر تأتيني من جهات ثلاث ، عيون حمر في رؤوس غامضة

غريبة تشبه الكلاب المسعورة ، تقفز مثلها ، تأتيني راكضة ، تبتغيني ، وأنا لا اتخيل سبيلاً غير الركض ، أركض وهي تنط وأكاد انهار على الارض ، فساقاي لاتقويان على حملي . . وهن يمنعني من أن أسرع وأسابق الـريح ، والنسـر قريب يكـاد يبلغني ، ها هو يأتيني رمحاً سريعاً يكاد ينهش رأسي ، والجمر الملتهب يقترب مني ، والارض تزداد وعورة، الشوك البـري يأكل قدمي ، وأنا مسرع ، والوهن يريد اعلاني فريسة للجمر الملتهب ، والـرؤوس الغامضـة تقترب مني ، والنسـر يكاد يسقط فوق رأسي أو على ظهري ، كنت اتحسس موضعه قبل أن يصيبني وأنا مسرع ، تدفعني الريح ، وثمة شيخ نحيف يظهر أمامي فجأة ، لا اعرفه ، ولا اظنه يقدر على صد ما أنا هارب منه ، لوّح لي بيده ، إنْ هي الامحنة ، ان هي الامحنة ، وغاب عني ، مبيض الشعر نحيفاً يتجلبب . . بالبياض عيناه واسعتان تفيضان بالحب والرأفة والرحمة ، وأنا أنطلق رمحاً ، هذه المرة فـالوهن يمـوت تحتي ورأسي يدفعني . . والفضـاء ينفرج عن بوابة ، غريبة ، لم أرها من قبل ، ولم تكن أمامي على مد بصري ، بوابة تظهر عن الأرض ، تنفرج عن حيطان زرق ، لا محيد عنها ، دخلتها ، وعينا سمر تقيمان هناك بين الحيطان الزرق ، وأنا أنزع تعبي ، وأظهر جديداً ، تنقطع

عني ذكرى المحنة ، وانتشي بين الجدران ، عالم آخر ، وقر وهاديء ، وثمة ابتهالات رتيبة سمحاء ، وعيناها تقوداني الى باحة ذلك المنزل ، أيكون منزلاً أم قصراً أم . . لا أدري ، كنت فيه كياناً جديداً ، استنشق منه الراحة ، واختزن النشوة . . واستعيد احساسي بالحبور .

كان لطفي الحامد يتحدث هامساً ، واصفاً رعب الامين ، وكأنه يستوعب بعضاً من هذا الرعب : الغاق والعيون الحمر والشعر المتهدل المخلوط بالبياض ، يعيدها عبارات متكررة ، وثمة حشرجة تنبعث من مسبحته بين اصابعه القلقة المتوترة ، واتخيل اني اسمع صوته مثل الفحيح :

ـ أظهر زيدان أوراقاً تشير الى انه ابن المجنونة !!

قفزت من مكاني مصعوباً ، لم أعد كما كنت عليه قبل لحظات ، هذا يوم الاعاجيب . زيدان أخوك ياجلال الدين ؟ يالحظك العاثر ، من حقك ان تستمرىء الموت يارجل . . هكذا دفعته الى الحائط ، ليس الابتزاز الذي يشقيك اذن !! ياليلى ؟ حاولت أن ألغيها من ذاكرتي ، طالبتني بذلك ، لست زعفرانية ، وأنا لا أطيق هذه الاجواء ، حريتي اعلان أحمله معي ، هُوية لاتقبل التستر ولا الاقاويل . وها اني اتناساها ، أخته من أبيه ، فالأمين

يعرف ، ان اباه تزوج أمراة أخرى غير امه . . وغير المجنونة ، ومنها انجب أبنته ليـلى ، اخت الامين ، صـديقتي وحبيبتي وخليلتي لفترة . امسحني من الذاكرة الزعفرانية . فأنا أعرف عنكم مـافيه الكفـاية ، طفـح بي الكيـل ، ولا ابتغي غـير حـريتي ، بين السـر والفضيحة يكمن القلق ، وأنـا أمقت التوتر ، ياوهاب . كانت اغنية مشوقة عذبة ، جسداً وروحاً تنساب من فمها الحريري المنقوع بالارجوان كلمات طرية ، هادئة تنسيني اني أمامها . فهي عند الحديث حورية ، اقتلعت نفسها بعيداً عن العوسج ، لتأخذ منه ثماره حسب ، وثماره لذيذة شهية ندية ، وأنا اسمع همسها في أذني شـائقاً ، هي ذاتها ، الجسد الغض والسيقان المشوقة ، أحار بين تمثلها في داخلي صورة وبـين احتضانها . هي تـطالبني أن ألغيها من الذاكرة ، اسراركم أعرف عنها مايكفيني ، طفح بي الكيل ، أخي شقي لايعرف غير القليل ، وأنا لا أريد تعذيبه . وظننت انها بالغت في الأمر . تخاطبني عبر الهاتف ، سائلة عني ، وأجدني معهـا صفحات مفتـوحة ، «لا زعفـرانية» ، أعـود فيها الى نفسي ، عندما تقرر هجري : اخبرني ، فأنا أودعك بهدوء عنـد الضروزة ، هكـذا طالبتني ، لكنـك بعيدة ، والبعـاد حيرة ، وعيناك تشعان في قلبي ، وقلبي يتمزق بين الاسرار ،

وشقاء الأيام ، ورأسي يضج بالشكـوى ، وأنا ملتـاع لولا واحتي المتنقلة بين أمي وعيني سمر . قالت لو عرف أخي ما أعرف لانهدت آماله ، وانهارت امبراطورية الوجاهـة والمال ولنضب عمره قطرات مسفوحات بهواجس التوتـر والرغبـة والقلق وخشية الفضيحة . لهذا تراني أسيح عنكم بعيدة ، حريتي في يدي وفي ذاكرتي . فأنـا سيدة نفسي يـاوهاب ، ولولاك لهاجرت قبل حين . .

* * *

اذن تعرفين ياليلى ما لا أعرف، تاركة إياي في الظلام هل حرصت أيضاً عـلى عمري ؟ أم انـك رأيت في «ايام الـزعفران» عذابات خلف واجهات الاستقرار والاكتفاء والرضا ؟ في عينيك بريق يضيء لي فضاءات عجيبة أجدني اطوف فيها رغبة «وحكمة» قليلة ، انما الرغبة طاغية والشجون كثيـرة وأوراق الحب والعشق تتـداخل بـين الغريـزة والابتهال ، وأنـا أحيا شقـائي بين الحلم والحقيقة ، بين الفضاء والقيد ، وانت تعرفين ما أجهل ، المعرفة ورطة ، تحررت منها بطريقتك ، وبقيت أسيرها بطريقتي ، والحامد يوقعني معه في شراك أسرار الزعفران ، والامين طريح الفراش . لايشكو من مرض محدد . هزال وكـآبة بـاديان عليـه ، والاطباء

لايرون علة ما يقدرون على تشخيصها ونصيحتهم لاتعدو اقتراح الراحة . . راحة الاعصاب . .

يهمس من بين شفتين امتصهما الهزال ـ

ـ ليس الميراث الذي يهمني الان ، فأنا جزوع من الدنيا ومن المال . لكنها الاهانة ـ ياوهاب ـ تلاحقني بعد ما عرفت بتهديد الأخوة المعفرة بالمكائد والمغروسة في العصابية . . العصابية والجريمة . . ثمة نذالة أكرهها . .

قلت مواسياً

ـ هوّن عليك ياأبا صابر ، فالناس يفاجأون بما هو أكثر هولاً ، والرجل ثمرة تربيته ونشأته أيضاً . .

وثمة مكابدة مع ذاته تمنعه من المواقفة :

ـ لو فكّر بطريقة أخرى ، لو سلك نهجاً آخر ، لو عاشت روح المحبة في قلبه ، لشاطرته الاخوة والمال في آن واحد ، لكنه عالم آخر غريب عني ، أمقته ويمقتني ، ولولا انعدام مايثبت اخوته لأقام الدنيا واقعدها . .

ـ وماذا عن الاوراق التي بحوزته ؟

ـ انها اوراق تثبت انه ابن سمية ، فقد طلقها ابي حاملاً ، كما اعتقد ، ورتب مع عائلتها تعويضاً مالياً لتسجيل ابوة الطفل باسم أحد اقربائها . .

ـ لكنها مازالت على ذمة والدك ؟

ـ كانت ، واعتقد انها سجلت لاحقاً زوجة لذلك القريب .

ـ هذا يفسر حقد زيدان عليك ، فهو الابن المرفوض . .

ـ أما طموحه الان فهو ترتيب هذه العلاقة سعياً الى وجاهة الزعفران ، وقد يلجأ اليك . .

اطرقت مفكراً، هذا يفسر تريث زيدان في الأمور معنا ، أو معي تحديداً : فهو يريد اثبات الانتساب لممتاز الأمين سعياً للوجاهة وشعوراً باسترجاع الحق . انه الابن المرفوض الذي يخوض مغامرات بطل الرومانس معكوسة ، انه (هيثكلف) أخر ، يتصارع مع الحياة عائداً الى الساحة التي يعتقد انها مكانته شرعاً . لكن يخلو من بريق ابطال الرومانس وعذاباتهم الكلية ، فهو ملوث بنذالات المجتمعات المدينية ، خاضع لها ، وأساليبه ليست المبارزة والمواجهة والتحدي ، بل الاغتصاب والغدر والتزييف والتهديد بالفضائح . انه نذل الرواية الواقعية !! لا ادري لماذا خطر هذا التعبير ببالي الان . فأنا أبعد ماأكون عن مثل هذه المصطلحات حيث تتسع لوحاتي واخيلتي لتلك الطاقات المتفجرة الملونة أو الصراعات الحادة التي التمسها عبر ومضة أو اشارة أو لمحة ، أرى الحياة من خلالها .

قد تكون «سمر» هي التي كررت العبارة أمامي ، فما تكاد الكلمات تمرق في ذهني الا وهي ماثلة في ذاكرتي أو متجسدة بذلك السحر الاخاذ، «أكره هؤلاء من هم على شاكلة زيدان»، كانت تقول لي، فهي ترى واحة العشق مهددة بوجود النذالة، أية نذالة ، «لو كان يخلد للعواطف الرفيعة أو للحب الذي يجمع الاشتات كياناً واحداً لمْا اكتوى بألم النذالة»، هكذا تفرق بين العذاب والالم، فألمه تعيس، وعذابات العشق رفيعة، وغايات المحبين منقوعة في المثالية ومشاريعه غارقة في ماء آسن . حاوره بحذر ، وجامله من دون رجوع عن مبدأ ، وتجنبه لأنه يغدر . قالتها ومضت ، مثل طيف ملأني بالحياة . ورآني الامين مستبشراً ، قال ـ

ـ اذا تمكنت من إقناعه بنصف ميراث والدي وكفى . . .

اذن سيلجأ اليّ زيدان ، ولكن ليس لهذا السبب وحده ، فزيدان يطمح أن يواجه بعض العوالم التي تنغلق أمامه ،

اعتدت أن اترك باب الحديقة مفتوحاً تجنباً لمشقة قطع الممشى الطويل كلما جاءني زائر .
وفي مساء يوم قائظ وجدت نفسي قبالته وجهاً لوجه ، ها هو بلحمه ودمه وبدلته البنّية

المتهدلة على كتفيه وجيوبه العريضة دائماً . . .
استغرب أن أكون حاملاً مقص السورود
بيدي ، لتقليم شجيراتها الصغيرة .
ـ خلت انك تعتمد على غيرك ؟
ـ عازب ومتقاعد مثلي لابد ان يهوى العمل اليدوي ، لاتنس انني نجار أيضاً . .

قدته الى المرسم الذي يتوسط الحديقة ، وجال بصره في القاعة ، بين اللوحات وقطع الاثاث والستائر السميكة - المسدلة ، وبدالي متوتراً أو متشنجاً . . لعل القيظ هو السبب
ـ كأنك تقودني الى الجحيم !
اجبته بهدوء
ـ هذه قاعتي الاثيرة يازيدان ، ولوحاتها
مستوحاة من الذكر الحكيم في وصف ما يحيق
بمن تحل عليهم اللعنة .

وطفقت أشرح ، مدفوعاً بميل ما ، لعله سرور الهواة في ايضاح لوحاتهم ، ولعله الميل لتعذيبه . كنت أمر على لوحاتي واحدة بعد الأخرى.

ـ هذه مستوحاة من الذكر الحكيم «اذا زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر» ، وهذه تبحث في معنى مشابه لم

يكتمل بعد متقصدة الايحاء مفيدة من قوله تعالى
«ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو
تهوي به الريح في مكان سحيق» .
واشرت الى أخرى ، كتب تحتها زخرفاً قوله عز وجل
«قطعت لهم ثياب من نار يُصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم
يُصهر به مافي بطونهم والجلود» .
ثم مضيت الى اخرى «سرابيلهم من قطران وتغشى
وجوههم النار» ، و«مُهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتد
اليهم طرفهم وافئدتهم هواء» ، و لوحة أخرى تستعير مما
يوحيه الذكر الحكيم «كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من
الليل مظلماً» .

كنت المحه من طرف عيني ، متظاهراً بالانغماس في ذلك
الجو ، برغم ان يده كانت تعبث في جيب سرواله بارتباك واضح ،
ولم تزل نظرة الريبة طاغية على ملامحه . وحالما تباطأت ، اصطادني
متسائلاً . .

ـ تراني مخطئاً دائماً ؟
ـ اراك ملتوياً اذا أردتني ان اصارحك برأيي .
كانت نظرته مشاكسة ،
ـ وهل ناقشت ذاتك بمثل هذه الحدة ؟

ـ وضعت لذاتي مواصفاتها ، وقد أخطىء وقد أصيب ، لكني اتجنب ايذاء الاخرين . .

ـ حتى عندما تكون محط أذاهم منذ البدء . .

عيناه تستدرجانني الى وجهه رغماً عني ، كئيباً صارماً في آن واحد . . .

ـ فلتبتدىء انت بالمغفرة اولاً والمحبة ثانياً ، وتسوية الامور بعدئذ

ـ هل تعتقد اني امتلك ارادة القديسين ؟

ـ لاتحتاج الى اكثر من عدة محاربة الشيطان الذي في النفوس . .

ـ حتى عندما يتراءى لك الجحود في المقربين اليك . .

ـ الاحسان يبتدىء بذي القربى

ـ رعندما تكون أمك شاهداً على بطشهم . .

ـ لا يتحمل الابناء وزر الاباء ، ولا المجتمع خطايا الافراد . .

ـ لكن القديسين يشهرون السلاح عند الحاجة ؟

ـ عندما يكون الشر سائداً . .

ـ أليس الجحود شراً ؟

ـ تخلط بين الخطايا والشرور ، بين الشخصي والعام ،

وتبحث عن «اسلحة» لما هو خاص ونسبي . .

ـ اين تقف مني اذن ؟

صاح هذه المرة ، متخلياً عن ذلـك الحوار الـذي انساب همساً ، متناسباً مع اعمارنا ، برغم روح المناكدة الواضحة فيه . وقررت الدخول في الموضوع :-

ـ اذا كنت تبحث في أخوة جلال الدين فالرجل مستعد لمشاطرتك الميراث ، كما تركه والده اصلاً . أما الاعتراف من دون وثائق تثبته فهـو حقه الشخصي . وابـوك هو المقصر وليس جلال الدين . .

ـ هل يرفضني ؟

ـ رفضك أبوك ، ولاشـأن لجلال الـدين بك ، فـأنت غريب عنه.

شحب وجهه . لطمته الاجابـة عنيفاً ، رغم قناعتي انـه يترقبها منذ البدء . انها التذكار الذي يبتغي طمسه شاهداً على انه يختلف عن الأخر. كانت السيكـارة ترتجف بـين اصابعـه، وبدا مصفراً غاضبـاً. نفث دخانـه بعجلة وارتبـاك ، وتمتم بكلمـات غامضة ، ثم أومأ مودعاً، لكني سعيت الى استبقائه ـ

ـ استاذ زيدان ، دعنا نخض في أمر أخر . .

كـان بـودي أن نستثمـر الجلسـة لتصفيـة بعض المناكدات التي جعلت حياتنا صراعاً مبطناً ومأزوماً .

لكنه أومأ مودعاً ثانية ، فتركته على هواه ، مغادراً نحو بوابة الحديقة ، ناقلاً جسده بخطى ثقيلة، ورأسه يرتد الى وراء ، كـأنما يـود العودة بـه ثانيـة الى المرسم للتلميح بالتعقيدات التي قد تتفجر هذه الايام . . .

اكتفى الجمـع بمن فيه، دقـائق معدودات تسبق مـوعـد اذان المغـرب ، وبـدت وجـوههم ، بمن فيهم صابر ، محطات لذاكرتي المزدحمـة . وقد يكـون ماقـاله صابر منذ أيام صحيحاً . قلت له حينئذ :

ـ ياصابر، والدك في حالة هزال مستمر ، وانا خائف عليه لعلنا نتوصل الى حل ينهي محنته النفسية . .

اجابني بهدوء

ـ لايمكن ان يظهر لي عم لمجرد الادعاء . . .

ـ لو توفرت الادلة على انه ابن المجنونة من ابيك لكان عمك . المصادفات تفتح ابواب المجهول، ولو جاءتنـا ورقـة اثبـات من طـرف محـايـد الان، لانهار الـرفض

والعناد . .

ـ مثل غيري ، أبحث عن يقين . ولنا الحق بعدئذ ايضاً لننقض علاقتنا به .
ـ النقض شخصي لا قوة شرعية له .
ـ لكني امقتـه ياوهـاب ـ هو الأخـر تعيس، لـه عقـده وأمراضه

ـ لو تغلب عليها بفعل أكثر نبلا . .
ـ طبع وتطبع وبيئة . .
ـ استطعت الاطلاع على اضبارته عند الطبيب النفساني (س) . .
ـ أتعني انه يراجع طبيباً معيناً ؟
ـ نعم ، منذ زمن ، جاهلاً بصداقتي لهذا الطبيب .
ـ هل اعد له جلسات عيادية ؟
ـ نعم ، خلاصتها انه مضطرب ، متناقض ، أميل الى البغضاء منه الى الحب . .
ـ وهل نوه بأطراف حياته ؟

كنت ابحث عن الاشراك والمصائد ، فثمة معلومات مازلت أتصيدها ، وثمة نقص فيها أروم سده .

ـ نعم ، نوه في هذه الجلسات بتعلقه الشديد بأمه ، وبتجربته العاطفية ، ومقته لجدي ممتاز الامين .

ـ ماذا عن تجربته العاطفية ؟

ـ تكرر اسم شذى في هذه الجلسات ، حوريتي وملاكي ، كان شاعراً عندما يطفق في الاشارة اليها ، تتلبسه شخصية أخرى ، وديعة هادئة عذبة ، تتناقض مع كيانه الخارجي . . .

ـ هل ذكر شيئاً عن موتها ؟

السؤال يلاحقني ، فأنا أود معرفة المزيد عن هذه الحورية التي قدرت على تفجير منابع الشعر فيه . .

ـ الفتاة ليست غريبة عليه ، فهي ابنة كريمة عبد الحليم

ـ ابنة خالته ؟

ـ نعم . .

ـ وهل يعرف بسر موتها ؟

ـ القضية تحيره هو الاخر ، كان يصرخ ، يكذب من يقول ان أمي مسؤولة عما جرى . .

ـ إذن ، هناك اتهام لأمه ؟

ـ نعم ، ولكن ثمة شكوك بأن عائلة الام تشكو من لوثة ما ، قد تكون اسرافاً في ردود الافعال والعواطف . .
لكن تعلقه بأمه ليس اعتيادياً .

ـ من حقه ان يتعلق بها في ضوء الحرمان والرفض . .

ـ يراها مثالاً للكمال . ؟

ـ شأن الاولاد دائماً !

ـ لا ، اعني انه يتحدث عن قدرة أخرى لديها ، قدرة «روحانية» ، كما يسميها ، لو كنت طيراً اتلمس السماء ، اتجاوب مع همساتك الحنون ، هكذا يناجيها كلما استرسل في الحديث . .

ـ كل هذا في الجلسات العيادية ؟

ـ ثمة لوعة تخنقه ، ثم يبتدىء بالمناجاة . .

ـ والطيور ؟

ـ يبدو انها هواية أمه ، فهذا الطير البري يستهلك طاقتها في التربية والمتابعة و التدريب ، وهي تتجاوب معه ، بين البركة والسماء ثمة عالم غريب تحبه وتشغف به . . حتى أصبح ابنها مأخوذاً بقدراتها . .

ـ والطيور القتيلة ؟

ـ مجرد طيور ميتة تستفز عنده حالة العنف ، كلما وجدها ملقاة الى الخارج من خلال فتحات النوافذ الحديدية . .

ـ اقصد ، لماذا تعلّقُ في رقاب قتلاه ، أو تترك عند جثثهم ؟

ـ النمط العصابي ينتقي مايشاء من المأثور او المقدس ، يحرفه ويفسره كما يشتهي . .

تذكرت ماقاله عن «قداسة» اداته . هذا رجل معطوب :

ـ انت تشير الى احتمال اقدامه على اقتباسات يسيء تفسيرها أو يتقصد ذلك ، شأن الذكر الحكيم «كل انسان الزمناه طائره في عنقه» .

ـ الذهن العصابي يسقط تفسيراته على الحياة ، وتبدو الاشارات والرموز ذات دلالات قصدية مغايرة عنده . . .

ـ وما هو استنتاج صاحبك الطبيب النفساني عن مستقبله ؟

ـ يتوقع منه اللجوء الى مزيد من الابتزاز ، وابتكار منغصات أخرى جديدة . .

ـ لماذا لايبتغي السبيل الاسهل ، اي المشاركة في ميراث

جدك ؟

ـ هذا يريحه مادياً ، لكنه لا يرضي داخله المريض .

ـ وهل نوه النفساني ببعض أساليبه بخصوص منغصاته الجديدة ؟

ـ يصعب عليه ذلك ، فهو أمام شخصية مختلطة المعالم ومشوشة . .

ـ لابد أن تكون مقدماً على حل ؟

ـ لا ، استعنت بصديقي الطبيب لاعداد خلاصة عن وضعه ، واستعنت بخبير جنائي لمتابعته . .

ـ هل تقدر عليه ؟

ـ الله هو القادر ، لكني أسعى بهدوء في المحيط الذي استمرأ الصمت خشية الفضيحة ، فرضخ للإبتزاز ونصب الشراك :

ـ انت الحجر في بركة الزعفران .

ـ قد اكون من الجيل الذي يهوى المواجهة . .

ـ انصحك بالحذر ، رغم ذلك .

قد تحبطه هذه النصيحة . لكني أودهُ واخاف عليه ، فعائلة الامين قريبة الى نفسي ، رافقتهم لسنوات ، واختلطت معهم

بنجابة عالية ، وأرى ان ملاحظتي أسرته برغم ذلك فهو يعرف اني حريص عليه وعلى اختيه .

كان صاحبه بقبعته الخفيفة وأنفه المدبب يربت على كتفه بهدوء ، نعم ، هكذا تصورت اني رأيته . ومسحت على عيني ، فأنا الان في حالة غريبة من النعاس ، لعله هواء المراوح السقفية ، يصعب علي فتح عيني ، ورأسي يدور ، وثمة فتور غريب يدب في جسدي ، واكاد أنام ، عيناها تشرقان في رأس طائر ، بدا صغيراً ، عصفوراً ناعماً أتلمسه ، ليكبر بعينين سوداوين جميلتين وانف رقيق وفم عذب لاعلاقة له بمناقير الطيور . كان فمها نفسه الذي اعرفه ، وأبتغيه، اسمع منه همسهاالعذب ، وارتشف رحيق الحياة ، . . كبر الطائر ملوناً يفرد جناحيه للريح ، وأنا لا أدري كيف أصبحت فيه ، هل أمسك بي كطائر الرخ ، أو اني كنت فيه أصلاً ، كان يتزايد حجماً ووجهها نضراً ينظر اليّ ، هاهو طائر محلق ، ينشد السماء ، وابتهالات جميلة عذبة متدفقة من كل جانب تحيط به ، والوجه ينظر مشرقاً والالوان تتوهج تحت الشمس والهواء يهفو عليلاً ، وصوت أمي ينساب في اذني مختلطاً بتلك الاناشيد والابتهالات ، تصطدح بها ترافق موكبنا . وتمضي فرحة هي الأخرى . .

وكأني استرجعت طاقتي ثانية ، نظرت الى حولي .

كان صوت الحاج حمد يكبر باسمه تعالى ، لينحني الـواقفون لحمـل الجنـازة . كـان زيـدان بينهم ايضـاً ينحـني بحـمـاسـة لاتصـدق حـتى في مثـل هـذه المنـاسبات ، وتحـركت الى جـانبـه الأيمن ، بينـما وقف ذو القبعـة الى جانبـه الأيسر ، وثمـة شيء يهبط عـلى مؤخـرة التـابـوت، ورقـة او مـظروف ، نعم ، مـظروف ينحـدر من جيبـه العلوي ، حيث السلسلة الذهبية . وبرغم دقة الموقف ، وجدت غريزتي تدفعني لقراءة العنوان «عزيزي جلال الدين الأمين» .

ربما كانت رسالة ابتزاز أخرى ، ابقـاها زيـدان ليدرك بها الأمين . كان ذو القبعة سباقاً الى مدّ يده ، قبل أن تبلغها كف زيدان ، وهمسة منه في اذن زيدان تربك الاخير وتجعله يتخلى عن حمل الجنازة . لكنه بين لحظة الارتباك ولحظة التخلي فوجىء ، كما فوجئت ، بصرخة حزينة تشبه العواء ، عطلته وأبقته معلقاً محتاراً . جاءت من اليمين ، من الزقاق الذي يطل عليه الجـامع عبـر شبابيك مزججة . كاد الفزع يعم المشيعـين أنفسهم ،

لكنهما تجاوزا اللحظة ، وبقي زيدان قلقاً معلقاً بين الفعل وعدمه ، ونظرت الى حيث ينظر مفجوعاً ، وجه امرأة عجوز ، ملتاعاً اسمر نحيفاً يلتصق بزجاج الشباك ، وجه ناحل معروق بعينين حمراوين ، وشعر يختلط اسوده ببياضه يلتف مضطرباً حول عنقها ووجهها ولم تتكرر الصرخة العواء ، لكنهُ همس شيئاً لم التقطه ، واتجه مغادراً يتبعه ذو القبعه بهدوء . .

لم تتكرر الصرخة العواء ، لكنها هزت دواخلي ، كأنها تقتلعني من الأرض ، كأني اسمع من خلالها اكثر من مأساة ، نواح عواطف حبيسة واخرى أحادية أصبحت لوثات معلنة هذه المرة ، ومكبوته عند آخرين ؛ لم تكن أصولها شريرة ، لكنها نأت عن تلك الأصول ، أنانية أو قاتمة ، صريحة أو معقدة ، يندبها عند اندحارها هذا العواء ، تماماً كما هو شأن الصندلاني الذي لم تتبق غير صوره الجميلة شاهداً على جيل عاطفته قبل احتراقها في نار الثأر والانتقام . . . . .

فما بين زيدان وابي القاسم الصندلاني قرون ،

يختصرها المكان نفسه هذه المرة ، درب الزعفران ، الذي قطعناهُ لأكثر من غاية . تجمع بينهما المكـائد ، وكـذلك تجليـات العشق التي تعوز نهايـاتها مسحـة البطولة أو المأساة ؛ وكلاهما خاضَ حياته بقناعـات خاصة ماسكة لولاها مابدت صبية الطاهر في لوعـة الطهر المناقضة لمقامها الذي وضعها فيـه أبوهـا ابن العلاء ، ولولاها مابدت جميلة بنت ابي الليث بهذا الاغراء ، ولا بهذا الهيام ، ولما كنت أبصرهما تاريخاً وصورة من خلال عيني سمر ، ولما كنت استدعي من خـلالها في لعبـة الالتقاء والتقـاطع سمـر نفسها ، بعينيها اللتين تحيـطان بي سوراً وتـرفعاني قـديساً ، وتغوصان في داخـلي راهباً مـدحوراً في لحـظة عشق لا مردّ لسلطانها . كنت أبا الحسن ، وكنت ابراهيم بن الخصيب ، وكانت سمر (جميلة) بنت ابي الليث ، عصية على الاخرين في بستان اللؤلؤة ، قـدرها من قدري ، وكلانا في مركب الوجد ، مرة حقيقة وأخرى مجازاً ، نخوض بمجاذيف الشوق حياة اخرى وسط عالم مزدحم بالمآزق والمكابدات والمنزلقات . . .

كنت قد تركت صحبي ينهضون بمهمة التشييع ، ومضيت لمهمتي ، عارفاً اني وسمر نبتدىء رحلة أخرى ، تاركين صفحات ماضية لثقاب تملأ بها بقية حياتها ، وثمة سؤال يشغلني اليوم ، كما شغلني منذ أيام ، ترى هل ينبغي أن أبقي ذهني مستودعاً لمثل هذه الانثيالات ؟

ولكن ها أنا على خلاف ما بدأت، تلبست الوقار والرصانة، نظرت حواليّ، حيث عاد الصحن خالياً، فأخليت ذهني أنا الآخر، وتركت جسدي يقودني، وثمة عواطف عجيبة تتوزعني ، بعضها حزين جزع والآخر طروب فرح، ولا أدري كيف تلقاني سمر موزعاً كما أنا عليه. . . خطواتي تسمعني نفسها باصرار، وكنت أحث الخطى. . . لربما هزني الشوق وأحيتني الرغبة . . .

رقم الإيداع : ٨٩/٧٠٢٦
الترقيم الدولى : ٧ ـ ٣٨٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص. ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣